روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 41

شاطئ العناق

الى أي حد يمكن للعاطفة ان تتطرف اذا كان الحب يلعب بالسنوات والظروف فأي حب هو هذا الذي يربط شارلوت اليافعة بإيان الباغ الخبرة الواسع التجربة؟

يربط شواطئ البحر الكاريبي وفي جزيرة سيرليان المهجورة لايان وكان هو الوحيد الذي يتدفق عليها أمواج العاطفة من قلب شارلوت الفتاة الصغيرة. غير انه اكتشف كالمركان حين عادت اليه بعد غياب لسنة الجزيرة الثانية جميلة كالفجر. وايان يطمح لمراتب شوق كبير. فهل تبقى شارلوت لدى جزيرتها المفضلة أم تقرر العودة الى لندن حيث خبرت نوعاً آخر من الحياة؟

REMA

لبنان ٧ ل.ل	الكويت ٧٠٠ ف	اليمن ٨ ر	السودان ٨٠٠م
سورية ٨٠ ل.س	[redacted]	تونس ١ ر	U.K. £1
الأردن ٥٠٠ ف	البحرين ٩٠٠ ف	ليبيا ٧٠٠	France F 10
العراق ٥٠٠ ف	قطر ٩ ر	المغرب ٨ د	Greece Drs 120
السعودية ٨ ر	عمان ٩٠٠ ب	خيبر ٨٠٠	Cyprus P 1

www.liilas.com

روايات عبير

آن ويڤل

شاطئ العناق

٤١

١ ـ لا يسعني إلا أن أذكر أن تلك الأناشيد كانت الأناشيد الأثيرة الى نفسي

شكسبير هاملت

كان الجميع يحبون شارلوت مارتن وفقاً لأعمارهم. ذكوراً أو إناثاً مفتونين بسلوكها المعصوم من الخطأ، أو بقوامها المشوق، أو باستعدادها لأن تعير ثيابها النسائية لكل من في حاجة الى ثوب خاص لموعد خاص.

كان أصدقاؤها يتفاوتون ما بين صبية صغار ومتقاعدين وحيدين. والجميع وضعوا ثقتهم في شارلوت. فساعي البريد يحدثها عن إصابته بمرض الدوالي. والمسؤولة عن نظافة المكتب تصف لها بتفصيل مرهق ولاداتها السبع. أما البقال الأرمل فكان يطلب نصيحتها بشأن ابنته العنيدة المراهقة. بل كان الفرياد أنيباناً يشكون مشكلاتهم في أدنيها المتعاطفة.

لكن يا ترى هل لدى شارلوت مشكلات خاصة بها؟ لو كان الرد بالإيجاب فهي لم تذكرها لأحد. فالمفترض معظم الناس أن الطريق مفروش بالورد أمام فتاة جميلة مثلها في الحادية والعشرين من عمرها. تشغل وظيفة مرموقة وتقتني مفكرة مزدحمة بالمواعيد.

الذين عرفوها لفترة طويلة أدركوا تدريجياً أنهم يكادون لا يعرفونها. وأنها برغم ما تبدو عليه من روح اجتماعية متسرحة، متحفظة للغاية. فحتى أنيتا موراي صديقتها الحميمة، لم تكن تطلع على مشاعر شارلوت الدفينة ـ أو على سبب علاقاتها القصيرة المثيرة مع الرجال الذين تعرفت بهم.

كانت أنيتا وشارلوت تتقاسمان شقة في لندن. وقد عاشتا معاً حتى الليلة التي كشفت فيها شارلوت عن ذاتها.

٥

REMA

كانتا في غرفة نومها تتبادلان أطراف الحديث. وشارلوت تحزم حقيبتها الوقت نفاد. غير أن الملابس التي تناثرت على فراشها الآن كانت ملابس صيفية كلها جديدة - فيها عدد من البراويل القصيرة - الشورتات - وأثواب الاستحمام وأثواب الشاطئ، وأخرى بلا أكمام بينما وضعت فوق حزائتها جواز سفر ونظارة شمسية وأنبوبة ضخمة من الكريم الذي يحمي على البشرة سمرة خفيفة فصيحة من أشعة الشمس. وكانت أيندا مستغرقة أمامها على الفراش الآخر تراقبها وهي تلف صندلها في ورق شفاف فيتمزقها قائلة:

- مالك من عادة رصينة. لو كنت مكانك لكنت الآن في شدة الانفعال. فكري في الأمر! غداً في مثل هذا الوقت ستكونين هناك.

مرّت لحظة ولم تجب شارلوت. ثم قالت بصوت خفيض:

- أنا لا أشعر بشيء... بل أشعر... بالقرف.

هبت أيندا جالسة مرددة كلمة شارلوت:

- قرف؟

لم تكن شارلوت من النوع الذي يتزع الى المبالغة فهي لم تكن تستخدم هذه الكلمة في وصف حالة بسيطة من الاضطراب العصبي الذي يحدث في الدقائق الأخيرة قبل السفر.

فحصت شارلوت شقيقتها لدى رؤية التعبير على وجه أيندا وهي تتأرجح ما بين إحساس بالندم على اعترافها التلقائي، وإحساس بالراحة لأنها أقدمت على هذا الاعتراف. فالأسابيع منذ أن حجزت تذكرة سفرها وهي في حال من القلق والتوتر المتصاعدين. وتمنّت أحست بالرغبة أن تشرك رفيقتها في ورطتها لكنها تراجعت في كل مرة. أما الآن وليتها الأخيرة في المنكفرة ولم يبق على سفرها سوى ساعات تواعد بعدها القراصنة النهائي. أحست برغبة جارفة للصراخ بما في نفسها الى شخص تثق به.

- ساعدني يا شارلوت!

- حسناً - هذه ليست عطلة عادية.

- فلماذا تقولين ذلك؟

في فترة أعياد رأس السنة عندما ذكرت شارلوت أنها ستأخذ إجازتها في

شهر شباط/فبراير وتسافر الى جزر البحر الكاريبي. ذكرت أيندا أنها لم تزر قط هذه العطلات الشتوية في جزر الهند الغربية أمر قاصر على الأغنياء فقط وليس أمراً متاحاً للفتيات العاديات - حتى لو كن مثل شارلوت تملكن طريقتهن في الحصول من موظفة الله كافية الى سكرتيرة خاصة ذات كفاءة عالية تتقاضى راتباً مجزياً.

عندما أدركت أيندا أن ذلك لم تكن دعابة جاء رد فعلها التالي بصورة شك في أن صديقتها ربما لن تتحمل بنفسها نفقات عطلتها هذه.

فشارلوت تستطيع اذا أرادت أن تتناول عشاءها في المطاعم الفاخرة غير مرة في الأسبوع الواحد. فإلى جانب شكلها الجميل الذي يؤكده فراتها الرفيع في القليبي. كان هناك شيء من الغموض يكتنفها الأمر الذي يثير فضول الرجال. وكانت وفيقتها تجعلها على صلة بالعديد من رجال الأعمال الموسرين كان معظمهم متزوجين ولكن ذلك لم يمنعهم بالضرورة من أن يطلبوا منها أن تلتقي بهم خارج العمل. كان البعض الذي تستلزم عادتهم سر أغوارها العميقة والذي لا يشبه رفضها المهذب يفضي الى أبعد الحدود في محاولة لسحق مقاومتها.

وهكذا فكرت أيندا بتهم من الاستياء أنه ليس مستحيلاً أن يكون قد نجح في النهاية رجل بجذاب مثابر في أن يقنع شارلوت بأن تتراك لنفسها العنان. ولكنها لم تفصح عن هذا الظن لصديقتها خشية أن تجرح إحساسها. وكان هناك احتمال آخر - وان بدا بعيداً - وهو أن صديقتها نجحت في أن توفر نفقات تلك العطلة فهي لم تكن مدينة مثل أيندا أثناء الأسبوع الذي تدير فيه شارلوت المنزل كان يتبقى فائض من المال تشتريان به مشروباتهما الحبية أو شريط تسجيل لأغنياتها المفضلة. كانت حذرة جداً عند اختيار أصناف جديدة من أدوات التجميل. صحيح انها تشتري الثياب المهندة ولكن اذا كانت فقط بحاجة الى استبدال ثوب جديد بآخر استغنت عنه من المجموعة المتنقلة بعناية في خزانتها. ونظراً لخبرة خادمتها وعنايتها الفائقة بما كانت ثيابها تبقى صالحة للاستعمال أضعاف أضعاف المدة التي تتحملها ثياب أيندا الرخيصة التي كانت تشتريها بشكل عشوائي تأسف عليه دائماً فيما بعد.

- حسناً - استمري في الحديث.

REMA

REMA

استحثتها أنيتا قائلة وهي لا يسعها إلا أن تسأل نفسها إذا كانت شكوكها على وشك أن تتأكد بأن شارلوت كما خمنت من قبل، لن تكون بقربها في هذه الرحلة الباعثة الدكاكيب.

«كان يجب أن أتذكر من قبل - فهي قصة طويلة معقدة».

«أوه يا إلهي. لقد كنت محقاً، هكذا حدثت أنيتا نفسها. فمنذ سنوات عندما كانتا تتحدثان عن فتاة أخرى أنعشتها علاقة عاطفية طائشة، اتفقتا على أنه من الغباء التورط مع الرجال المتزوجين، أو حتى القيام علاقات مع العازبين منهم، فرغم أنه من المفروض أن فتيات من وطنهما قد تحررن تماماً هذه الأيام، إلا أن مثل هذه العلاقات تنتهي دائماً بشكل سيء للفتيات إن لم يكن للرجال أيضاً».

قالت أنيتا بصوت مسموع:

«ليس من الضروري أن تذهبي أذا كنت قد عدلت عن رأيك. فمن الأفضل أن تتراجعي الآن في اللحظة الأخيرة من أن تستمري في شيء لست واثقة منه».

نظرت إليها شارلوت بعينين متذكرتين قائلة:

«هذا هو ما يجعل الأمر أكثر صعوبة. فقد كنت واثقة من الأمر، لم يكن لدي أدنى شك. كان يجب أن أقدم على ذلك مهما بدا جنوناً للآخرين. ولكن يجب أن انتهيت من كل الترتيبات. بدأت أتذكر... أتساءل ما إذا كنت قد أخطأت».

كانت أنيتا أنيتا داخلها وقالت:

«ملقاً لا تقصحين عن الأمر لي» فاخفيت عن مشكلة يساعدك أحياناً على رؤيتها في ضوء جديد. أتريدين فنجاناً من القهوة؟

وبعد القهوة قدمت أنيتا سيكارة لصديقتها، ولم تكن شارلوت تدخن، ولكنها أخذت السيكارة كانت يداها ترتعشان وهي تضعها بين شفتيها.

حدثت أنيتا نفسها قائلة وهي تشعل لها السيكارة: يا إلهي. إنها في حالة غريبة. فرغم أنهما في السن نفسها إلا أن أنيتا كانت دائماً تعتبر صديقتها أكثر منها نضوجاً واتزاناً. ولكن في تلك اللحظة لم تكن شارلوت تبدو المرشحة المدينة التابعة. كانت قد غسلت وجهها من المساحيق. فبدا شاحباً للغاية. وكان شعرها الأشقر الطويل الذي اعتادت أن تتبعه فوق رأسها بالدبابيس وقت العمل، مسترسلاً الآن على كتفيها. وبدت وهي تفث السيكارة بلا خبرة صغيرة

ضعيفة للغاية هشة الشخصية.

بدأت حديثها قائلة:

«لن تكون هذه هي المرة الأولى التي أذهب فيها الى جزر الهند الغربية. فقد نشأت هناك في الواقع».

«حقاً!» ولكني كنت أعتقد أنك ولدت في الكاريبي. لقد قلت لي ...»

«لقد ولدت في لندن. ولكن والدي سافرا بنا الى الخارج وأنا في الرابعة من عمري. وعدت عندما كنت في الثامنة عشرة. لم أقل لك ذلك لأني لم أكن أود الحديث عن هذه الفترة من حياتي».

«ولكن لماذا؟»

فلت شارلوت تنهد وتروح في الغرفة في قلق وقالت:

«عندما جئت الى لندن كنت أحس بالتوء. الأمر أني تعيسة وحيدة. زهدت الحياة. فلندن تصبح مكاناً مرعباً إذا كنت تعيشين وحدك وليست معتادة على العيش في مدينة كبيرة. الفرة الأولى ضاق صدري في قطار تحت الأرض وشعرت بذعر حقيقي. كنت أشعر أحياناً أنني لو سقطت ميتة في أحد الشوارع، سيدوسني الناس بأقدامهم ولن يهتم أحد بي. فجميعهم مشغولون بالتزاحم بالمناكب للقضاء مصالحهم الخاصة».

«أعرف ماذا تعنين».

قالت أنيتا برارة. فقد كانت هي يوماً واقفة جديدة على لندن وتذكر جيداً أنها احتاجت الى بعض الوقت لتتنفس الطريق.

واستطردت شارلوت قائلة:

«وأخيراً أدركت أن عليّ أن أستجمع نفسي. فعزمت على ألاّ أفكر فيما مضى وأن أركز على حياتي الجديدة. وهكذا لم أكن أتحدث عن الماضي مطلقاً. فحاولت ألاّ أفكر فيه كثيراً. ولكني عزمت أن أعود الى هناك يوماً. وبمجرد أن حصلت على وظيفة مناسبة بدأت أوفر جزءاً من راتبي كل أسبوع. كنت أعلم أن عليّ انتظار وقت طويل قبل أن أوفر المال اللازم لتلك الرحلة. أعطيت نفسي أربع سنوات... ليس فقط لأوفر المال اللازم ولكن لأتضح وأغير نفسي».

توقفت عن الحديث. رأتها أنيتا ترتجف. ثم استطردت قائلة:

عندما تكونين في الثامنة عشرة فان أربع سنوات تبدو كأنها حكم بالسجن المؤبد في بادىء الأمر. اعتدت أن أنتظر من أيام الرزنامة كل يوم بين فالأسبوع هنا كأنه شهر. وبعدئذ وبعد أن أنهيت تدريبي على أعمال السكرتارية، لم تصبح الأمور بهذا السوء. كنت أعمل بجد في وظيفتي الأولى وبدأت أنشيء صداقات. وبعد أن قضيت عاماً أدركت أنني لم أكن تعيسة ولكني لم أكن سعيدة جداً. وقبل أن أتنبأ بذلك قلت فيه أن بوسعي أن أكون سعيدة. قلت أنني وقعت في حب شخص ما. ولكن هذا الحب لم يدم - كما أنه لا يدوم في سائر التجارب. فيصورة ما وبعد فترة أبعدني دائماً أبعد عن الناس - أقصد الرجال. وكأنه.. كأنه ليس بوسعي أن أبدأ من جديد قبل أن أتأكد أن ما حدث من قبل قد انتهى - انتهى تماماً.

فاسمعني يا عزيزتي. كل هذا يبدو مُبهماً لي. أليس من الأفضل أن تعودي الى البداية؟

«البداية»؟

ردت شارلوت تلك الكلمة بشكل غامض. ثم تنهدت وجلست وكأنها أحست بالتعب.

«أعتقد أن الأمر بدأ عندما ذهبت الى الجزيرة للمرة الأولى. ليتني لم أذهب الى هناك».

قاطعتها أنيتا قائلة:

ما هي تلك الجزيرة وأين هي؟»

«إنها جزيرة سوليفان. كنت معتادة أن أذهب الى هناك كثيراً..»

REMA

٢ - أيمكن يتحرك في عالم الأشباح. وأحس تعبي وكأني طيف من عالم

تتبعون «الأثيريه»

هناك وأنت العشاء. الى اللقاء يا عزيزتي».

كانت شارلوت تمسك في يدها سلة غسالها وفي اليد الأخرى فتاح القطن وزعانفه. قبلت وعنتي أمها ثم ركضت عبر الممر نحو مرفأ الزوارق.

كانت في السابعة عشرة من عمرها تقريباً، لم تعد طفلة. ولكنها لم تصبح امرأة بعد. من ثلاث سنوات مضت كانت تحيفه بشكل أثار قلق «جين مارتن». والآن، عندما ذهبان الى المدينة، يحدق الرجال في إثرها في طريقة تثير قلقاً من نوع آخر.

أما شارلوت فلم تكن تعي اهتمامهم هذا. وبالتأكيد لم تبادله. فاذا وضعنا في الاعتبار القاييس الجسدية - خاصة اذا كانت ترتدي نظارة شمسية داكنة - يمكن بسهولة أن تعتبرها فتاة في التاسعة عشرة أو العشرين من عمرها. ولكن عندما تخلع النظارة فانك ترى في عينيها الرماديتين براءة الطفولة وصراحتها وهلل المستوى العاطفي. كانت لا تزال فتاة غير معقدة. غير خجلة.

أطلقت شارلوت زقزقة ارتياح وهي تستقل زورق العائلة الذي كان اليوم ملكاً لتصرفها. ولم تسألها أمها عن مقصدها فإن رافاس وجين مارتن لم يكونا آخرين بصعب إرضائهما. وبشكل عام كانا يشجعان أبناءهما المسنة على روح الاستقلال وحب المغامرة.

وبرغم ذلك، كان لدى شارلوت شعور غير مريح بأنها لن يقرّا رحلاتها الى تلك الجزيرة القاحلة المهجورة. المشهورة بالمحن.. جزيرة سوليفان.

فحتى لو نجحت في اقناعها بأنه ليس هناك ضرر في ذهابها، لن يبقى الحال على ما هو بمجرد معرفتهما. فالآخرون سيودون الذهاب الى هناك بدورهم. ولن تبقى الجزيرة ملكها بعد ذلك... مكانها السري... كملكة سحر خاصة بها.

كانت جزيرة سوليفان الصغيرة تبعد قليلاً عن ساحل جزيرة التوابيل الجميلة التي اشتهرت فيها اسرة مارتن من زمن بعيد. وهي إحدى جزر الهند الغربية. كان بيتهم على الساحل بالقرب من قرية للصيادين، يبعد عن خاصة الجزيرة حوالي نصف ساعة بالمواصلات العامة - وان كان استخدام كلمة عامة قد يكون مضللاً بالنسبة الى مدينة تعدادها لا يتعدى سبعة آلاف نسمة، وهي أيضاً ميناء لسفن الخطوط الملاحية في موسم الشتاء. لكنها لا تقارن بالميناء الجديدة في باربادوس ذات العمق الكبير، أو بأرصفة ميناء دولي صاخب مثل بورت أوف سبين في ترينيداد.

كان على شارلوت أن تبحر عدة أميال بطول الساحل لتصل الى الجزيرة مارة بمستوطنتين صغيرتين للصيادين. كانت احداهما موطن السيدة العجوز التي عرفت منها السبب وراء إثارة جزيرة سوليفان هذا القدر من الذعر بين السكان المحليين.

كانت تعرف مالياً أن جزيرة سوليفان مكان سيء. مكان ملوث بالشر. ولكن كان من الصعب أن تستكشف بالتحديد سبب ذلك. فلأكثر من عشرين سنة لم يجسر أحد أن يطأها. السكان الذين يعيشون على مقربة من جزيرة سوليفان قوم بسطاء يؤمنون بالخرافات ويخافونها لدرجة دفعتهم الى تفادي الكلام عنها، أو حتى مجرد التفكير فيها في بادئ الأمر فريلت تساؤلاتها بتهريج وذعر من السكان الذين كانوا أميالاً يرسمون اشارة الصليب في عصبية طلباً للأمان

وكان من الطبيعي أن يؤتي كل هذا الى شحذ حب استطلاعها، وأخيراً، بعد أسابيع من الملاطفة، نجحت في إقناع العجوز ماري المسكينة العمياء بأن تكشف لها تاريخ الجزيرة.

كانت الجزيرة محاطة بتشعبات مرجانية خطيرة، وهناك ممر واحد يتسع لمرور زورق الى البحيرة المحيطة بالجزيرة شرط أن تقوده يد ماهرة. وكان هذا المدخل الوحيد الى الجزيرة يقع ناحية البحر بعيداً عن أعين سكان الساحل.

كان الوقت ظهراً عندما كانت شارلوت، ولد وضعت يداً واقية على الدفة، تعبر الممر الثاني للمرة الرابعة عشرة منذ قامت بأول زيارة للجزيرة منذ عام. ولو كان ذلك ممكناً، لقضت شارلوت معظم أوقات فراغها في الجزيرة. ولكن لم يكن الزورق تحت تصرفها الخاص طوال يوم كامل مرات كثيرة.

تذكرت شارلوت وهي ترسو على شاطئ الجزيرة ولد ارتدت ليلى بحر كان لونه ذات يوم في زرقة سماء البحر الكاريبي. لكنه أصبح الآن أبيض يعمل أشعة الشمس والماء الناقعة. تذكرت المرة الأولى التي وطأت فيها قدماها أرض الجزيرة.

فلاستكشاف مكان مثل هذه السمعة السيئة يغريها، حتى لو كان ذلك في وضح النهار. كانت شارلوت في حاجة الى قدر كبير من الشجاعة. فحتى الآن، لا تسعى الى قضاء ليلة في الجزيرة، ورغم زياراتها المتعددة لها. ورغم أنه يمكنها الآن أن تتحول في الجزيرة بدون أن تتلفت ورائها.

سمعت أيضاً يقول مراراً أنه ليست هناك قوى خارقة للطبيعة. وأن أكثر الحوادث غموضاً لها تفسير منطقي، إذا اهتم الناس بالبحث عنه. عندما كانت شارلوت في السابعة من عمرها، كان على والدتها أن تلازم الفراش ثلاثة أشهر قبل أن تلد أخاها الأصغر. وخلال تلك الفترة، جاءت امرأة طيبة ومرحة لكنها أمية تدعى فيوليت لتتولى مهام الطهي والتنظيف وهي مازالت حتى الآن درة تحية الى نفوس أسرة مارتن. وبدون علم رأساس مارتن عمدت فيوليت الى امتاع أبنائه بالقصص الشعبية في الهند الغربية عن الأشباح ومصاصي الدماء.

وتركت قصص فيوليت الرهبة أثراً عميقاً في نفس شارلوت الصغيرة. وكانت تستمع الى تلك الأقاصيص بعينين محملقتين

لكن الآن عندما تطلق فيوليت عينيها وتبدأ الحديث عن سكان الليل، تأخذ شارلوت في الضحك وفي داخلها وفي أعماقها، ثم تستطيع أن تقنع نفسها بأن تلك الأقاصيص هراء قاماً.

وهكذا وجدت نفسها في زيارتها الأولى للجزيرة تشق طريقها عبر النباتات الكثيفة التي تحجب الرؤية بين قلب الجزيرة والسفن والزوارق القارة وهي في

REMA

حالة من الذعر الكبير.

عندما أخبرتها ماري العجوز أن هناك منزلاً في الجزيرة، فضلته شارلوت على قرار بيتهم الصغير الساحلي، ولم تكن لتتوقع أن يبقى منه الكثير بعد مرور عشرين عاماً على هجره.

بعد أن تركت شارلوت طريقها وسط سياج من ثمار الكروم الشائكة، وجدت نفسها على مشارف أرض منبسطة، وأطلقت شهقة دهشة لما رأت وتوقفت لحظة الحدق في انبهار فهو ذلك السر الذي كشفت عنه الآن زيارتها للجزيرة. فمنزل جزيرة سوليفان لم يكن حطاماً متداعياً من الأخشاب المعفنة تكسوها النباتات المتسلقة التي تنمو في انطلاق في ذلك الجو الاستوائي. حقاً، كانت أشجار الغابة تطوق الدرابزين وتتسلق الأعمدة الطويلة في بهو الطابق الأرضي، بل ان هذه النباتات التحمت ببعض الحجرات.

بعد أن اعتادت شارلوت نسبياً الاحساس الغريب الذي راودها وهي تقف وحيدة في مكان لم تطأ قدم انسان ولم يسمع فيه صوت منذ زمن بعيد يعود الى ما قبل مولدها، كلفت نفسها بعمل «بطولي» هو وضع حدّ لزحف نباتات الغابة على المنزل. ولفكت مستعينة بمنجل حاد ان تتخلص من الحاجز النباتي الذي يسدّ الباب الرئيسي. كانت مهمتها الآن أن تخلّف الدرج الفلنكوي الذي يتوسط البهو الواسع.

ففي وقت خلال سنوات الاهمال، سقطت شجرة في فناء المنزل بفعل إعصار، فاخترقت بعض فروعها النافذة التي تتوسط الدرج لتصبح فيما بعد نزلاً لسيّ طفيلي تحوّل الى ماعز لا يمكن تخطيه بين الطابق الأرضي والطابق العلوي.

صعدت شارلوت الى الطابق العلوي متسلقة أحد الاعمدة الحجرية. وفكّرت بعد ذلك أنه انا رأت قدمها وكسرت قد تعاني أيامها عدة من القرح والألم قبل أن يستكشف أحد زورقها الراسي في النهر فالتأي النهري الى الجزيرة.

ظلت طوال نصف ساعة تقطع الفروع المتشابكة المتشقة من جذور الشجرة حتى لمع جسمها بعدما أن تصبب عرقاً وتساقطت قطرات العرق على ذراعيها وظهرها. إذ أنه لم تكن رأيه نسمة منعشة على اختراق هذا السائر الخانق طالة شارلوت المتعلقة.

جلست على الدرج تستريح لبضع دقائق. وربما كانت تفكر في الأشخاص الذين عاشوا في هذا المنزل من قبل سمعت صوتاً يتحرك جعلها تشهق وتكتم أنفاسها. أمضت طوال خمس عشرة ثانية تقريباً بخوف لم تحسه في حياتها من قبل. خدر يسري في رأسها استحال جسمها الحار الى كتلة ثلج وأخذ قلبها يخفق خفقات بطيئة. ثم استعادت قدرتها على التفكير السليم. لم يكن من باخارج شيءٌ إنه إنسان، أو حيوان. لا، لايمكن أن يكون حيواناً. إنه إنسان. لكن من؟ بالتأكيد أنه ليس من أهالي المنطقة! أهو غريب؟ شخص لا يعرف شيئاً عن الجزيرة؟

وربما كانت تلك الأفكار تومض في ذهنها سمعت وقع أقدام في الشرفة. انتظرت شارلوت في حذر، وقد زايلها الخوف. فترى الشخص الآخر الذي يتحرّى بدون وعي منه الجزيرة المحرمة.

كان الرجل الذي ظهر، بعد خطوات في البهو السفلي، وهي جالسة على رأس السلم، غريباً لون بشرته كان بنياً كعامة سكان جزر المحيط الغربية. لكنه كان أوروبياً انطباعها الأول عنه. أنه طويل القامة، في مثل سن والدها تقريباً ـ ذلك النوع من الشخصيات التي يصفه أبوها بقوله «انه شخص فخر المظهر». وبينت شارلوت حكمها هذا، على أساس أنه في ماجة الى حلاقة ذقنه وأنه عابس الوجه.

الرهلة الأولى لم يرها كان هذا أمراً غريباً بالنسبة اليها. فقد كان ذلك السلم هو أول شيء خطفه عند دخولها البهو، والواضح أنه صمم على أن يصوّب العين إلى أعلى نحو سقف الطابق الأول. حيث كانت تعلق في هذا المكان، على الأرجح، ثريا ضخمة. ولكن كان الباب المؤدي الى غرفة الاستقبال أول ماالتفت نظر الرجل فسار نحوه.

لثت شارلوت أن يدخل الغرفة. فور فعل، تسللت خلسة عابطة الدرج وحاولت أن تخرج بدون أن يتخطاها. فهي لا تعرف لماذا أحست أنه من الأفضل أن تفعل ذلك. ظلّ واقفاً مكانه عدة لحظات، بدت لانهاية لها. وأخيراً، تحرك نحو الظلمة التي تطلق أكبر غرفة في المنزل. وإن كان يتخللها بعض الضوء المتوهج.

التقطت شارلوت يهدوء وخفة المنجل وبدأت تهبط الدرج بخطوات

REMA

جانبية. بلغت آخر الدرج، وفجأة ظهر من جديد حائل كل منهما في الآخر دقيقة. والآن بعدما رأته وجهاً لوجه، لم يعد لدى شارلوت أدنى شك أنه لم يكن هذا النوع من البشر الذي يأمل المرء أن يلقاه في مكان كهذا تضيع فيه هباء صرخة الاستغاثة. لقد حذرتها أنها من أن الرجال ليسوا كلهم مثل أبيها، وأن بعضهم لا يكن الوثوق به، بل يجب اجتنابه. لم تكن السيدة مارتن واضحة بشأن ما يمكن أن يتسببوا عليه. اذا ما أخطأ المرء، وياتي يوم ورغم أن شارلوت لم تفق بعد الى كلام أمها في ذلك الوقت، لكنها تذكرت ذلك التحذير الآن. وأدركت بحدسها أن هذا الرجل هو من ذلك النوع الذي عنته أمها. فهي لم تر من قبل ذلك التعبير الذي علا وجهه وهو خارج من غرفة الاستقبال، ولا تستطيع أن تعرفه الآن. ولكنها كانت نظرة جعلتها تندفع عبر الهبوب، منطلقة خارج الباب لتلقي بنفسها وسط الغابة وكأن شيطاناً يطاردها.

بلغت الشاطئ، لكنه ظل هناك. وأحست أنه يحاول الامساك بها. راوغته ودفعت بالمجداف في وجهه. ثم وجهت إليه ضربة كان من الممكن أن تبتر ذراعه لو أصابت، ولكنها لم تمسه. وبينما كان السلاح يقطع الهواء، فقز جانباً. ثم استدار واندفع لحرمانها. دار صراع قصير بينهما ثم جذب المجداف من يدها وقذف به بعيداً. وبعد لحظة وجدت وجهها منطوياً على الرمال، بينما انحنى الرجل بجانبها. ممسكاً برسغيها خلف ظهرها. لم يكن بوسعها أن تفعل شيئاً سوى أن تلتقط أنفاسها بعدما أحست بالتعب وقلة الفزع. فحتى لو كان لديها مزيد من القوة لتقاومه، لكان ذلك بدون جدوى. وفجأة أحست بيديها وقد تحررتا. دحرجها على ظهرها وقذف قائلاً:

«لا تفزعي، لن أمسك بأذى».

فتحت عينيها ونظرت اليه. لم تحاول تصور أن الرجل الذي أمامها الآن هو رجل آخر، فلم يكن هذا هو الوجه الذي أفزعها منذ قليل في المنزل. بل بدا وديعاً ضاحكاً - يصغر عشر سنوات عما رأته منذ قليل.

جلس على الرمال قائلاً:

«أنا آسف اذ اضطررت أن أكون عنيفاً معك، ولكنك كنت تقسيتي تصنعين. أنت في حاجة الى شيء، تشربينه. انتظري سأحضر لك شيئاً».

وبينما كان يتحدث جلست شارلوت وبصقت الرمال من فمها. كان هناك الآن في الجزء الثاني زورقان، زورقها وزورق سباق قرمزي اللون. جلست ترقبه وهي ترتعش وهو يغترف في الماء ناحية زورقه.

وعاد بالزجاجة وسدرة صوفية قائلاً:

«من الأفضل أن تضعي هذا على كتفيك وأنو لعدم دفائك. فقد تقلبت صدمة عنيفة. إن أعصابك تضطرب».

وبعدما لاحظ أنها ترتعش الى حد يمنعها من القيام بأي رد فعل طبيعي وضع السترة على كتفيها قائلاً وهو يفتح الزجاجة أمام شفتيها «والآن خذي جرعة قوية من هذا».

كان رائحة مارتن يفتح أوعاله من الشروبات بصراحة. لذا أحست شارلوت بالاختناق وهي تبتلع الشروب، كادت تنهار على الرمال مرة أخرى لو لم يساعدها ذلك الرجل الذي أخذ يربت على ظهرها بقوة لتلتقط أنفاسها. وعندما استعادت قدرتها على التنفس، تناول هو مشروبه. كان من الواضح أنه معتاد عليه فقد تناول جرعة كبيرة من هذا الشروب وكأنه يشرب حصير الليمون.

«أشعر بن بتحسن».

أومأت برأسها إيجاباً. أحست بسترته وقد وضعتها على كتفيها. غليظة، ولكنها غاية في الدفء فتنهدت بارتياح قائلة:

«ماذا تفعل هنا».

«أستكشف المكان. سمعت أشياء عن هذا المكان أثارت فضولي لرؤيته».

«فعلاً سمعت».

«بأن هذا المكان لم تطأه قدم انسان منذ زمن بعيد. يبدو أن من أبلغني ذلك اخطأ. من أنت؟ وماذا تفعلين هنا».

«أنا شارلوت مارتن. وأعيش هنا».

اتسعت عيناه قائلاً:

«هنا».

«كلا. ليس هنا، ولكن في البلدة المجاورة لهذا المكان».

مد يده مبتسماً وقال:

REMA

«مرحباً بك يا شارلوت مارتن لسبي. ليام. ليام هاملتون».

«أهلاً بك».

أدركت وهي يتصافحان أنها لم تر من قبل شخصاً لديه مثل هاتين العينين الزرقاوين الساكنتين.

«أهذا كل ما سمعت؟».

«صمتاً كلا، كان هناك المزيد، ولكني أعتقد أنه قبل الجانب الخياطي فهم لم يشرارا شيئاً تحديداً. بل الكثير من التلميحات الكثيرة والقليل من الحقائق. قررت أن أحضر وألقي نظرة، فلم يكن لدي ما أفعله اليوم أفضل من ذلك. وصادفت تأتين الى هنا فمن المؤكد أن المكان ليس به شيء».

«أنا الانسان الوحيد الذي يجيء الى هنا. فلا يجرؤ أحد من أهالي المنطقة حتى ذلك».

«تعرين أن هناك شيئاً مرعباً بالنسبة الى الجزيرة».

«من المفروض أنها مسكونة بالأرواح».

«حقاً؟ لماذا وكفست بعيداً؟ هل تصورت أنني شبح؟».

«كلا، ولكنني لم أستبعد ذلك».

ابتسم قائلاً:

«أنت فتاة لا تختارين الألفاظ الظريفة. أعتقد أن شكل بدا شعراً بعض الشيء».

حدقت فائلة قائلاً:

«لم أتصور أنني إذا أعطيت حلاقة ذقني يوماً فسيجعلني ذلك أبدو غير برأيه».

«أنت لا تبدو كذلك... الآن. ولكن عندما خرجت من غرفة الاستقبال...».

«قلت أنه من المعتقد أن الجزيرة تسكنها الأرواح. أرواح من؟».

«أرواح من عاشوا فيها منذ سنوات مضت... أرواح أسرة سوليفان».

«هل أفهم من هذا أنهم ماتوا جميعاً؟ ماذا حدث بالضبط؟».

«كان السيد سوليفان رجلاً هرماً وكان ثرياً. أعتقد أنه مات الثلاثين وكانت زوجته تصغره كثيراً، ولم ترتاب في الزواج برغم جائلة لكن أسرتها أجبرتها على ذلك لأن أباها كان مديناً له بالمال وكان يريد أن يحطمه. من المؤكد أنه كان رجلاً ظليماً وشريراً عليها حتى أنه اشترى هذه الجزيرة وبنى هذا المنزل وأبقى زوجته سجينة هنا. ثم بدأ يبني، معاملتها. يطيع عاد يضرب ويلعن. بل يضربها أحياناً. وفي النهاية جن وقتلها. كان سيقتل إبنه أيضاً لكنه فكر من الهرب واختبأ حتى جاء أحد أقاربه واصطحبه الى انكلترا. لكني لا أعتقد أنه تخطى تلك الواقعة. تصور لو أنك رأيت أباك يطلق الرصاص على أمك! لا يمكن لصبي أن ينسى هذا أبداً. أليس كذلك؟».

«كلا. أتصور أنه لا يمكنه ذلك. لكن من قال لك كل هذا؟».

«امرأة عجوز اعتادت أن تقدم في بيت سوليفان. كانت في المنزل عندما حدثت تلك الواقعة. كانت تهبط الدرج عندما سمعت طلقة رصاص ورأت الصبي الصغير يركض في البيجر وملابسه والده يحمل في يده بندقية. لكن عندما رأى ماري - الخادمة - لم يخرج وراء الصبي الى الحديقة بل دخل مكاتبه واستحم».

«أعتقد أنك لا تشاركين أهل المنطقة خوفهم من هذا المكان».

«كلا. ليس الآن. في بادئ الأمر كنت أخاف. ولكن رغم ما يمكن أن يحدث ليلاً لم أحس بأي مخيف أثناء النهار. أما في الليل. فمن المعتقد أن الناس رأوا أنواراً وسمعوا صرخات. ومن الأرجح أن هذا من صنع خيالهم مع ذلك فأنا أخاف المكوث في الجزيرة بعد غروب الشمس. أعتقد أن هذا يجعلني في حالة السكان المحليين تماماً».

«بالعكس. أنا أعتقد أنك شجاعة بشكل غير عادي لتأتي الى هنا وحدك نهاراً. لماذا تأتين الى هنا؟».

«المنزل يبدو جميلاً للغاية. ومن العار أن نترك الغابة تحطمه.

لم أعطت اليه يحلمها الدفين وهي لا تدري أن هذا المشروب جعلها كثيرة الكلام بشكل يتناقض مع شخصيتها.

«سأشتري هذه الجزيرة يوماً وأعيش هنا. سأطلق المنطقة الفاصلة بين المنزل والشاطئ من الأشجار وأحولها الى حديقة جميلة. سيصبح هذا المنزل أجمل منزل في جزر الهند الغربية. سيسعى الى شرائه الأمريكيون الأثرياء الذين يأتون الى هنا في الشتاء. ولكني لن أبيعه حتى لو عرضوا عليّ ملايين الدولارات».

«مقارنة بأسعار المنازل في الجزر الكبرى. أعتقد أنك ستضطرين الى دفع الكثير في مقابل ذلك».

«أبه. كلا. سأشتريه بثمن بخس. فالأثرياء يشترون مكاناً لا يستطيعون أن

REMA

جديرا فيه من يعمل على خدمتهم.

«لا تظنين أن السكان قد يتعطفون على خواطرهم إذا ما كانت الأجور عالية»، عزت رأسها نافية قائلة:

«منذ سنوات قليلة حدث شيء جعلهم أكثر خوفاً مر من هنا بيت خاص ظن وكأنه أن جزيرة سوليدان مدير مأمونة وقرروا شراء التعلم على الشاطئ». ولكنهم لم يعلموا كم كان الشر شديداً ولم تكن لهم دراية بالتيارات الثلجية الخفية وأغرقوا على الفور. أحد سكان القرية هذه الواقعة كدليل على أن الأرواح لا تريد أن يقترب أحد من الجزيرة. لقد كنت محظوظاً إذا تمكنت من اجتياز المتر بأمان. من الأفضل أن تسير أمامي في طريق العودة حتى أتمكن من إنقاذك إذا تعرضت للخطر».

«تشجعين أن أتعرض لشيء كهذا!»

«كلا، أبداً، ولكنك لن تقول لأحد أنك جئت الى هنا.. أو أنني كنت هنا. أليس كذلك؟»

«كلا. لن أقول لأحد».

«أتعطني يدك؟»

«نعم أعطيه».

«دعني بعض الطعام في الزورق. هل تريد أن تأكل شيئاً؟ هناك ما يكفي لاثنين».

«أشكرك كثيراً».

أمست بالدوار وهي تتجه الى البحر. وقبل أن تأتي بالسلة من الزورق غطست رأسها في الماء كأنها تتخلص من هذا الاحساس».

وعندما عادت وهي تسوي شعرها الطويل بأصابعها قائلاً:

«كنت تبدين كالفورية حينما غطست المياه حتى وسطك».

مسحت وجهها بيديها وهي تجلس بجواره قائلة:

«كنت أتمنى أن أكون حورية بحر، فأنا أحب العيش في كهف في جزيرة. هل أنت في عطلة؟ لا يبدو عليك أنك سائح».

«حقاً» قال:

توقفت عن حل سلة الطعام وربطته بقطعة قماش محاولة تحديد مصدرها وراء حكمها هذا.

فالسياح على وجه العموم يرتدون ثياباً جديدة أنيقة. اشتروها خصيصاً لعطلتهم، وجيبهم ثقيلاً بالنقود، يحملون آلات تصوير، ولكن هذا الرجل لا يبدو مهاجراً من شمال الشمال. ليس فقط لأنه بحاجة الى حلاقة، أو لأنه يرتدي بنطلوناً قديماً من الجينز وحذاء رياضياً متسخاً، مصنوعاً من القماش.

كان من الصعب تصنيف هذا الرجل في فئة معينة. لم يكن حتى يرسمها أن السن منه. فبيانه بيان شاب، تحمل رشيق. أكثر قرباً تكشف عنه حركاته التراقية. كان وجهه يبدو صغيراً أيضاً عندما يبتسم. ولكن خطوطاً ظهرت حول عينيه لم ترها من قبل أي شخص يقل عن الخامسة والثلاثين من عمره وشعره الداكن المتموج خطه الشيب فوق أذنيه. وقالت:

«لا أعلم. لكنك لا تبدو كسائح وهذا كل شيء».

«تلك رائحة طيبة».

قال فا ذاك وهي تفتح غطاء الترمس لتنبعث منه تلك الرائحة الزيتية.

فمن اغط كان هناك دورق آخر من عصير الفاكهة الثلج وربما أصبح لديها فنجانان من البلاستيك استخدمتهما كأكوبين. ملأت الكوب الكبير بحساء سرطان البحر الساخن قائلة:

«إنها ساخنة فلا تحرق لسانك. تناول ما تريد من الخبز».

قال فا وقد وضعت أمامه بقية الطعام:

«هل تتناولين وجبة عادة كل هذا الطعام؟»

«نعم ـ لكن لا تقلق فنحن نتناول وجبتنا الأساسية في المنزل عند غروب الشمس. ولذا يمكنك أن تقاسمني هذا بكل سرور».

ابتسم قائلاً:

«لم يكن هذا ما أعني. فمعظم الفتيات النحيلات يعشن على ثمار الليمون الهندي وأوراق الخس».

«أوه حسناً لا يمكنني التخلص من تحافتي».

كانت شارلوت اعتادت سماع صوت أمها وتجربت يستحثانها على

REMA

الطعام، ومع أنها استسلمت، كما يبدو، للجوع كأمر واقع، ظلت تفكر في أنها نحيفة، خاصة اذا ما قارنت نفسها مع أختها فلانيا الممتلئة الجميلة.

رفع حاجبه قائلاً:

«لا يمكنني أن أصدق بأنك نحيفة يا عزيزتي».

كانت نبرة صوته، ونظرته اليها، نظرة تقييم معجبة متأنية، وسماعها إياها بكلمة عزيزتي، كل هذا جديد حتى تارانوت، جديد ومثير بشكل غريب في آن. فطريقة نبراتها المتشددة وطبيعتها القاسية عملتا على تأخير تلك اللحظة التي تخص فيها، كأنوثة حبيسة، براءة قوية تخلع رداء طفولتها وبدء مرحلة جديدة من حياتها. لكن عندما تطلب ليام هاملتون عينيه الزرقاوين الداكنتين، ونظر إليها كأنها فتاة ناضجة جميلة، أحدث أول شق في هذا العلاق. لم يخطر في بالها أن جاذبيته وإعجابه قد يكون فيهما زيف. فهي تعرف الكثير عن قاطرة البحر ولكن القليل عن الأشخاص الخطرين.

بعد أن تناولا طعامهما بادرته قائلة:

«أنت لم تر المنزل جيداً. تعال دعني أريك إياه».

«لا يمكننا أن نتمرجح طويلاً بعد الغداء».

«هل أنت متأهب؟ أنا لست متعجلة».

وقف يتكاسل ثم تبعها قائلاً:

«حسناً، سأتي معك».

«أمل أن تراه في الصيف وقد تزهرت أزهاره. خلف المنزل أشجار ذات أوراق متساقطة. أما تلك النباتات المتسلقة التي تغطيه بالأعشبة فتأتي أزهاراً بيضاء برتقالية اللون. وبينها أيضاً نبات الجهنمية وأنا أتوي تشذيبها لكني لن أزيلها لمامه».

«هل كان للجزيرة اسم آخر قبل أن تشتريها أسرة سوليفان؟»

«نعم، كانت تدعى جزيرة الناغو. اسمها ولاسيما بالهجة المحلية له رنين حزين يذكرني بالديك. قصة حدثت منذ زمن بعيد. حروب جرت في الزمان الغابر».

«هل هناك مكان لزوج في خططك للمستقبل».

«زوج؟»

ردت الكلمة من بعده بذعر قاتل.

«حسناً، أعتقد أنك تستمتعين برفقتك جيداً بما لا يسمح لك التفكير في الاستقرار لكني لن أخذها كتضحية مسلم بها أن يشاركك شريك حياتك حياتك هذا. ربما يفضل العيش في مكان أكثر حضرية وحداثة».

«لا أحب أن تعيش هناك».

«ربما، اذا كان معي شخص متأنق يساعد بيدي، عندما تظهر الأشباح في الليل».

«مرة أخرى أحست بالاثارة والارتباك. لم يكن لديها شك الآن في أنه يعتقد أنها على الأقل في عمر فلانيا. كانت تعرف في أعماقها، أن والديها لن يوافقا على مثل هذا الرجل. ولكنها كانت تستلطفه وأحست فجأة برغبة في أن تكون أكبر سناً».

«يا ربما مستقلاً بعد أن دخلا المنزل».

«تأتين الى هنا دائماً».

«مرة كل شهر تقريباً وهذه هي المشكلة. فكلما تغلبت النباتات تحت من جديد. امكنك ساكناً لحظة. وقل لي إذا كنت تعلمين أن المنزل تسكنه الأرواح».

«هل كنا طلبت منك لم يقطع الصمت المطبق سوى حفيف سحلية في مكان ما وسط النباتات المتسلقة».

ضحكت قائلة:

«حسناً، ماذا ترى؟»

خفض صوته قائلاً:

«أنت لا تنتظرين مني أن أعمل بالكائنات الروحية بينما أنا في حضرة شقراء جميلة تركبني رديا بحر أقيس كالثلج؟»

ضحكت ثم جلبها اليه لم يكن هذا العناق مشبوب العاطفة كتلك العناقات التي تصفها قصص الحب التي تقرأها فلانيا الى المنزل بين حين وآخر لتقرأها لي سراً عندما لا يكون هناك احتمال أن يسمعنا أبوها. وبعد لحظات رفع ليام رأسه صائحاً

«يا إلهي! أهذه هي القرة الأولى؟»

«نعم».

REMA

معا عمرك!»

قالت شارلوت بصدق متأصل خاصة عندما تواجه بسؤال مباشر:

«ست عشرة سنة.. سبع عشرة تقريباً.

أطلقتها من بين ذراعيه وأخذ يضحك.

«لماذا يضحكك؟»

تساءلت في حيرة وخيبة أمل، بل في غضب أيضاً

«أتذكرك فكرة كم أبلغ أنا من العمر؟»

هزت رأسها نفياً.

«عندما كنت في السادسة عشرة من عمري، كنت أنت في الثلاثين. يعلم الله أني لست رجل مبادئ، لكنني أقف عند حد عناق فتيات المدارس الصغيرات. الأفضل أن أوصلك الى المنزل. وأحذر عائلتك حتى تلاحظك بشكل أكثر صرامة يا طفلتي. تعالي معي.»

«لا يمكنك أن تفعل ذلك.»

«طبعاً يمكنني.»

«والديّ لا يعرفون أنني آتي الى هنا. ما من أحد يعرف ذلك. فهذا سرّ. ولو قلت لهم سيمنعونني.»

«كان يجب أن تفكري في ذلك من قبل.»

كان مستحيلاً أن تدخل معه في جدل أو تستعطفه بينما هو يستحثها على السير وسط النباتات. ولكن عندما وصلا الى الشاطئ، ارتخت قبضته على يدها وتركت من جانبها.

«والدتك وعدتني! خاطبتني ألا تقول لأحد.»

«لم أكن أعرف حينذاك كم أنت صغيرة.»

«ولكن ما علاقة هذا بذاك، فالوعد وعده.

«كلا، إذا كنت قد حصلت عليه بناء على مظاهر كاذبة. أنت تعلمين أنني خنتك أكبر سناً. أليس كذلك؟»

«نعم، لكني لا أرى أهمية لسني. أراهن أنك لم تكن لتتغير هذه الشعرة لو كانت فلانيا في مكاني، وهي لم تتعد التاسعة عشرة من عمرها.

«هناك فارق كبير بين التاسعة عشرة والسادسة عشرة يا صغيرتي. شارلوت.. أنا لا أعرف من تكون فلانيا، لكنها اذا كانت في التاسعة عشرة فلا شك أنها عرفت العناق وأبهى تفرعاته إدراكه.

«إياها اختي، ولم يقبلها أحد من قبل. فأبي لا يسمح لها بالخروج مع الفتيان.»

«لماذا؟»

«يقول انها مازالت صغيرة.»

«صغيرة حتى التاسعة عشرة؟ حسناً دعينا من فلانيا. أنا قلق بشأنك أنت. من المؤكد أن والديك نبهاك لتحذري الأغراب، خاصة الرجال.»

ذكرته قائلة:

«أنقذت حذري في البداية.»

أصابت عينيه لمعة ذكرى فقال:

«لن أنسى هذا أبداً. ترين أن هناك تناقضاً بعض الشيء بين تحذيراتك بشر قراءتي قبل العشاء.. وبين أن تدعيني اعانقك؟»

«أنا لم أدعك.. أنت لم تستأذني. كيف كان يرسمي أن أمنعك؟»

قال يهدئ وقد التسم تعبيره باغدية مرة ثانية:

«كيف إذاً كنت ستمنعينني لو اخترت المعسول على ما هو أكثر من العناق؟»

صمتت الدقائق التي وجهها الذي لوحته الشمس وهي تقول:

«أنت لست على هذه الشاكلة.»

«ماذا يجعلك متأكدة هكذا؟ ألأنني لا أهدئ والطعام في فمي، وأطلق الكلمات بطريقة صحيحة؟ أم لأنه يحلو علي أني أغسل بانتظام وإن كنت لا أعلق دائماً؟ إذا كانت تلك هي مقاييسك فستنتظرك صدمات قاسية قبل أن تكبري.»

«ليست هذه هي مقاييسي، وأنا لم أقصد هذا.»

«ماذا كنت تقصدين إذاً؟ وماذا يجعلك تثقين بي؟»

«أنا، أنا لا أستطيع أن أشرح لك هذا. لكني عرفت... وكنت على حق.»

«اعتمدت يا صغيرتي على الحظ أكثر من الحكمة.»

طفت واقعة مكانها دقائق عدة تقارير رقيقة في البكاء ثم لفت به قائلة:

«أرجوك يا إيان.. لا تقل لأبي. ان أغسل إذا منعني من المجيء الى هنا بعد

REMA

الآن.

«جئتك الى هنا ليس مأموناً، فلقد أتى أخطات التقدير وأحدثت فجوة في زورقك وأنت تخترقين هذا الممرّ ما من أحد سيكون هنا ليتفقدك. حتى لو أنك لويت كاحلك فقط فان هذا سيكون له عواقب وخيمة في مكان مهجور وان يفكر أحد في البحث عنك هنا هناك أكثر من سبب يحتم معرفة أمكنة وجودك.

«أود، لكنا جئت! سنفسد كل شيء. الآن، لكنا لا تهتم بشؤونك فقط.»

«لقد رأيت خللاً رهيباً يعبر وسط الطريق العام. هل ستتجاهلينه؟»

«تلك مقارنة ظالمة. أنا أستطيع أن أعني بشيء.»

«رجعت لتوك أنك لا تستطيعين ذلك يا أيتها الصغيرة العنيدة.»

وضع يداً على كتفها ورفع وجهها نحوه بالأخرى قائلاً:

«ربما من الأفضل حتى للهي أن أعطيك متأكداً عما يمكن أن يحدث.»

ضغط على كتفيها بأصابعه بينما انسلت يده اليمنى خلف ظهرها ورفع أذنها في يأس. الأمر فان خوفها منه الآن تقلص الى مجرد خوفها من أن يفقد تهذيبه ويبلغ والديها.

تحوّل تفكيره الآن الى العوام لا إرادي جاهدا عليها من سكينة ثم قال:

«جئت رأيي. فربما يكون من الأحسن أن ألقاً الى أسلوب تربية عتيق وأضربك على مؤخرتك.»

تراجع قليلاً ووضع يديه في جيبه قائلاً:

«أنت صغيرة جداً على الأسلوب الأول. وكربة على الأسلوب الثاني. سأترك الأمر لوالديك. يجدر أن تبتعد عن الجزيرة، سنأتين في زورقي ويمكننا أن نسحب زورقك. فيما بعد... ولا تلجأي الى أي خدعة.»

فلا صامتين معظم الطريق. وعندما اقتربا من خليج هوريتسيا قالت بجفاف:

«أنا أنطق في الخليج التالي.»

واندهشها خفف سرعة الزورق حتى يتمكن من وقف المحرّك. ثم قال:

«حسناً، هنا سنفترق.»

أصاء وجهها وقالت:

«أقصد أنك لن تأتي معي الى المنزل.»

«غيرت رأيي.»

«أوه... ليام، شكراً لك.»

لمعت عيناها وهي تقول تلك الكلمات بل كادت تحتضنه.

ثم تفكر أن تسأله عن سبب تراجعه إلا بعد أن عادت آمنة الى زورقها.

انطلق وقال بتكتل غامض لحظة افتراق الزورقين:

«ستكتشفين ذلك قريباً بعد الى الغداء.»

اللهجات صوب الدار وهي تحسّ بالحيرة إزاء ما تعنيه كلماته تلك. وتساءل نفسها ما إذا كانت ستراه مرة ثانية.

هبط الليل عندما كانت أسرة مارلن تنتهي من وجبتها المسائية. وخفض الجميع رؤوسهم عندما كان راقاس مارلن يردد صلاة الشكر. وبعد أن رفعت شارلوت وفلافيا بقايا الطعام عن المائدة، حملتا الأطباق الى المطبخ الذي كان في مبنى منفصل عن المنزل. وبرغم أن فيوليت لم تكن تعارض إن تتركا مهمة غسل الأطباق لها حتى الصباح، إلا أن أباها لم يكن يسمح بمثل هذا التواني. فهو لا يوافق على تشغيل الخدم في مهام يمكن للمرء أن يقوم بها بنفسه. ويرى أن الاحتفاظ بخادمة وسط أسرة بها فتاتان تافهتان تشاركان زوجته في الواجبات المنزلية أمر غير ضروري بل مؤسف أيضاً.

كانت هيلين مارلن تعارض زوجها، ولكن بعد مرضها الذي جعل استخدام فيوليت ضرورياً، أصرّت على الاحتفاظ بها ليس فقط مراعاة لمصلحتهم ولكن أيضاً لأنها كانت تعلم أن فيوليت بحاجة الى هذا العمل. كانت هيلين تحسّ أحياناً أنه بدون صحبة فيوليت المرحة لم تكن لتقوى على تحمّل الضغوط التي يفرضها عليها تزمت زوجها القاسي. كانت تحب زوجها، ولكنه لم يكن رجلاً سهل المعاشرة.

وبجرد أن وصلت الفتاتان الى المطبخ، وأصبحتا بعيدتين عن سمع من في المنزل، انطلقت فلافيا يتون تفكير:

«لن تتصوري ما حدث اليوم.»

أثناء العشاء، كانت شارلوت مستغرقة في التفكير في أحداث يومها حتى أنها لم تستشف أي أثر لهياج مكبوت في سلوك شقيقتها.

REMA

«سأذهب الى حفل راقص.»

«حفل راقص!»

رددت شارلوت هذه الكلمات بدون أدنى تعبير. فلم تذهب أي منهما الى حفل راقص على الاطلاق. لأنهما لا تنتظمان اجتماعياً مع نوع الاشخاص الذين يقيمون حفلات راقصة.

«كنت أتمنى أن يكون لدي شيء لطيف أرتديه. لكني أعتقد أن ثوبي الأزرق سيكون مناسباً تماماً.» يقول إن الحفل لن يكون رسمياً. أوه، كنت أتمنى أن تلقي به يا شارلي. إنه جذاب للغاية.»

«أين التقيت به؟»

«في القرية. كان يتسكع وحده، ولكنه هنا مع مجموعة من السياح تطوف البحر في يخت. إن يخصهم يرسو بالقرب من سولت بريدج. أعتقد أنه يخت كبير.»

«ما موعد هذا الحفل؟ تعرفون أن أبي لن يسمح لك بالذهاب.»

«أليفة، وأنا لن أستأذن أبي. سئمت من معاملاتي كطفلة. أريد أن أقرر شيئاً مثل باقي الفتيات. بمجرد أن يعلم الجميع الى الثوب. سأسأل من الناظرة.»

«فلافيا، من المستحيل أن تفعل ذلك! انا عرف أبي سيغضب كثيراً. آه... ولا أعرف ماذا يمكن أن يفعل.»

«لن يعرف. كيف سيعرف؟ هو يأتي الى غرفة نومنا بعد أن نذهب الى الثوب.»

«افترضي... افترضي أن البيت شبّ فيه حريق. حين ذاك سيكتشف الأمر، وأيه. لا تكوني سلاحة يا شارلي. لن يشبّ حريق في البيت. في كل حال أنا لا أرتكب جريمة إذا لم يكن أبي سخيفاً بعض الشيء.» ثم اضطررت للتسلل خارج المنزل.»

«فلافيا! كيف تقولين هذا!»

«لأن هذه هي الحقيقة. وأنت تعرفينها. أنا لا أقول أنه قد سواب بالفعل ولكنه ليس شخصاً طبيعياً. فلولا أبي ماكنا حصلنا على أي قدر من الحرية. انها لا توافق على أفكاره الغريبة. قد لا تقول هذا. لكني أعرف أنها لا تتفق معه في استماتت بوالتها عندما كانت في مثل سني. لم يتمها أبوها من العمل أو الخروج

مع الفتيان واستخدام أدوات التجميل. أما أبي فيكرر أن مكان المرأة هو بيتها. ولكن كيف لي أن أتزوج بينما ليس مسموحاً لي أن ألتقي بالفتيان؟»

«سيسمح لك بالخروج مع شخص مهذب.»

«ولكن جون شخص مهذب بالفعل. إن مفهوم أبي عن الشخص المهذب هو ألا يتناول المشروبات، ولا يدخن، ولا يرقص، ولا يقبل أية فتاة إلا إذا كانت خطيبته. ومثل هؤلاء الفتية لا يوجدون الآن. وان وجدوا فأنا لا أريد واحداً منهم.»

عندما عادتا الى المنزل، كانت أمهما الحيلة بينما كان أبوهما ينتظر عودتهما ليقرأ لأولاده كعادته دائماً في الفترة ما بين العشاء ووقت النوم. كان الكتاب الذي يقرأه لهم الآن بعنوان سلوك الحياة.

حين كانت هيلين ترمق وجه ابنتيها لم تكن لتتخدع بما يظهر عليهما من تركين فقد كانتا ترقبان والدهما ولكن لا تستمعان اليه.

كان هناك وقت، عندما كانتا أصغر، لم تعيا بشيء، غير عادي أو محافظ في أسلوب حياتهما. كانتا حين ذاك تستمعان مشدوهتين الى صوت أبيهما العميق الشرعي وهو يقرأ لهما القصص، مثل قصة ديفيد كوبرفيلد أو قصص كبلنغ.

ولكنه أخيراً عمد إلى قراءة كتب ذات مضمون فلسفي لا تغطيه الأحداث أو المغامرات. كان الصبيان يتسللون بينما تهأت الفتاتان الى أحلام اليقظة. بل أن هيلين نفسها كانت تجد أفكارها سارحة.

عندما تزوجا كان رافائيل يعمل ناظر مدرسة. وبعد موته شارلوت بقليل ورث ميراثاً غير متوقع. فقرر مغادرة انكلترا. البحث عن مكان يستطيع فيه هو هيلين أن يربيا من شروط تضمن تتصاعد فيه البداية. وبينهان سوياً مدينتها الفاضلة. ولأنها كانت تحبه ولا تأبه إلا بسعادته. فجاهدت هيلين اعتراضات أهلها وأصدقائها. فبلها من رأمة أن تراه مرة ثانية في حالة معنوية مرحة، ولذلك كانت على استعداد لأن تتبعه الى أي مكان.

وهكذا عندما الى جزر الفند الغربية. وطوال عشر سنوات لم يحدث أي صدع جوهري في سعادتهما. كانت تشعر بالوحدة أحياناً. فقد كان رافائيل يرفض

REMA

الاختلاط مع بقية المستوطنين الأوروبيين، ولكن مصانع الجزر الكنالي، مع مناظرها الخلابة عوضتها الى حدما عن هذا النقص أثناء تلك الفترة. وفاض عدداً من الكتب الأكاديمية عن تاريخ الجزر، وكان دخل هذه الكتب كافياً لتغطية النفقات المعتدلة لمعيشتهم في الكاريبي.

بدأت هيلين تقلق عندما بلغت الفتاتان سن الرابعة، تقلقا تعليمهما على يد أمهما في المنزل. كانتا على الدرجة نفسها من التعليم مثل الأطفال الذين يلتحقون بالمدرسة إن لم تكونا أفضل. وروغم أن رافاس كان يؤمن بتعليم المرأة فانه يعارض بشدة توظفها الذي كان في رأيه يتعارض بالضرورة مع دورها التقليدي القيم كزوجة وأم. وأعلن عزمه على أن يبقى التلميذتين في المنزل حتى تتزوجا ولم تنجح حجج هيلين في جعل آرائه أكثر اعتدالاً.

«لكن مانا سيصبح من أمرهما إذا حدث لنا شيء قبل أن تتزوجا؟»

«هذا افتراض غير محتمل يا عزيزتي. فأنا أتمتع بصحة جيدة وأتوقع أن أحيا لسنوات مقبلة كثيرة.»

«حمداً لله اننا انتهينا من هذا.»

قالت فلافيا وقد تقلصت الصحراء وهي تأوي الى حجرة نومهما مع شارلوت فأسرة مارلين الفلة الى النوم في ساعة مبكرة وتستيقظ مع الفجر «يمكنني الآن أن أستعد للحفل.»

«فلافيا، لا تذهبي... أرجوك... لا تذهبي.»

«شارلي، لا تقلقي.»

وقفت أختها على أطراف أصابعها ومدت يدها لتسحب من فوق خزانة الثياب صندوقاً كرتونياً أفرغت محتوياته على الفراش.

تساءلت شارلوت في دهشة:

«من أين جئت بهذا؟»

«كنت أشتريها واحدة تلو الأخرى على مراحل بعيدة. كنت أعرف أنه ستحين الفرصة لأستعملها عاجلاً أم آجلاً.»

تناولت فلافيا مرآتها الصغيرة المعلقة على الحائط وأسندتها على مجموعة من الكتب. ثم أحضرت صورة فوتوغرافية منتزعة من إحدى مجلات الأزياء التي لا

يرونها إلا عند ذهابهم الى طبيب الأسنان. كانت صورة لوجه فتاة. أما الكلمات التي كتبت تحت الصورة كانت تقول: البشرة هذا الشتاء شاحبة. العينان واسعتان بأهداب كثيفة. الشفتان مغريتان. تلك هي السمات الأساسية لوجهك في الموسم.

وما من شيء يجعلك تبدين شاحبة هكذا.»

«كلا. ولكني أستطيع أن أحاكي عينيها. كما ان إصبع أحمر الشفاه الذي غدي هو من اللون الذي تستخدمه. اسكتي يا شارلوت. فأنا أريد أن أركز.»

جلست شارلوت القرفصاء على فراشها ولم تتكلم إلا بعد أن انتهت اختها من التزين.

«في أية ساعة ستعودين؟»

«لا أعرف. ليس قبل منتصف الليل. وربما بعد ذلك.»

«كوني حذرة فيما تشربينه.»

تصنعتها شارلوت بذلك وقد تذكرت كم أصبحت متحررة بشكل غريب بعد أن ابتلعت جرعة واحدة من ذلك الشراب...

ولكن فلافيا لم تكن مصغية إليها وبدت تائهة وهي تنظر الى صندوقا.

«أي، الظرى كم الساعة الآن؟ حوالى سبعون في النطاري. الى اللقاء يا شارلي. لا تقلقي سأستمتع بوقتي وسأقص عليك كل شيء في الصباح.»

ولكن شارلوت لم تتمكن من أن تمنع نفسها من القلق. ولم يكن بمجرد خوفها من انخفاض الأمر هو الذي جعلها في قلق وتوتر. فهي من وقت لآخر تلمح هذا النوع من الناس الذين يطوفون البحار في بعثات كبير غامض. ولذا كان فيها شيء غير مريح من أن فلافيا قد تجد في الحفل بعثة أكثر مما قيد متعة.

كانت تأمل في ألا تظهر نساء الحفل الزميرالدين لتوب فلافيا التي حاكته لها أمها أو لطريقتها الساذجة في التزين.

لم يكن قد مضى على ذهابها أكثر من ساعة عندما ارتعدت شارلوت حين ومض ضياء غير عادي النافذة المفتوحة بشعاع الضوء.

«فلافيا، لم أتوقع عودتك قبل ساعات.»

تساءلت فلافيا النائمة وخفت الغرفة الداكن على الفراش وتتذمر باكية.

REMA

«ماذا حدث؟ أود، اخفضي صوتك، سنوقظين أمي وأبي».

دفنت فلافيا وجهها في الوسادة، بينما كان جسمها كله يرتعش بنشيج مكتوم. وعندما وضعت شارلوت يدها على كتفها، أشاحتها بعيداً، ورفعت رأسها المتفجر في صوت القنوط.

«ابعدي عني! دعيني وشأني. إن هذا نتاج غلطتك».

«أنا؟ ماذا فعلت؟ عم تتحدثين؟»

قالت بحدة وقد نسيت أن تخفض صوتها:

«كنت تتظاهرين بالقلق لتعالي الى الحفل. بينما لم تنبسي ببنت شفة عما فعلت. أليس كذلك؟ لم تحذريني من أنك سردت تاريخ أسرتنا بالكامل على شخص غريب عنا تماماً. ماذا تظنين كان شعوري، عندما سألني ذلك الرجل المتوحش ما اذا كنت أخدك. جعلتني أظهر كالبلهاء أمام الجميع! ثم أشعر بذل هذا الذل من قبل، فللمرة الأولى في حياتي كنت سأستمتع بوقتي، وقد حطمت كل شيء»

وأمام انحطها بين الغضب والاحباط أسلمت نفسها لموجة ثانية من البكاء.

٣٣ «أنا فعلاً لا أرى ولا حاسة ولا شيء. وفي سعيدة بهذا، أنها ليست ضريراً بعد. لذا يمكنها أن تتعلم

شكسبير « تاجر البندقية »

صاحت شارلوت مستجدة أختها:

«لقد استيقظوا. فهناك شخص قادم. اسرعي! ادخلي في الفراش».

برغم انسيابها، لم تكن شارلوت بحاجة الى ترديد هذا الكلام مرة ثانية، وبسرعة البرق كانت فلافيا قد لفت أغطية الفراش. وبالكاد كان هناك وقت لتنظر شارلوت في فراشها قبل أن ينفتح الباب.

لم تكن أمها هي التي جاءت لتحقق فيهما وقد راقدتا ساكنتين بصورة غير طبيعية بدون أدنى حركة. فتحت شارلوت عيناً واحدة لترى أختها الصغيرة واقفة فوق رأسها فأطلقت زفرة ارتياح!

«كيث! ماذا تفعل هنا؟»

سمعت أحداً يبكي. ماذا هناك؟»

«بالتأكيد كنت تحلم. فلافيا نائمة، وأنا لا أبكي».

«ولكنني سمعت بكاء. أنا واثق من ذلك».

«عد الى فراشك».

نهضت شارلوت من فراشها وساقته أمامها الى غرفة الصبية.

كانت تحب كل اخوتها، ولكن كيث كان حبها الوحيد. كان أخاها المفضل. فسواده واكب الرحلة في نهرها حين أصبحت ناضجة بالقدر الكافي حتى لم ترفض مقدمه وصغيرة الى الحد الذي يمكنها من التمتع بحنو الأم معه.

«لم يكن ما سمعت حلماً».

REMA

قال كيث باصرار وهي تمسح أطراف الغطاء الجديد.

«اسكت متورط الآخرين. لم يبدأ».

انحنت لتقبله فتلقت في المقابل عناقاً خجولاً وهو يقول:

«تصبحين على خير يا عزيزتي شارلي».

زال لساعد بهذا التدليل لأنه كان يشعر بالعطف. فقد كان يناديها هكذا عندما كان صغيراً وقد اشتق اسم التدليل هذا من أغنية اسكتلندية عن الشارلستون الصغير.

كانت الأغنيات الشعبية لبريطانيا وجزر الهند الغربية وبعض الاسطوانات الكلاسيكية هي كل ما يعرف السيد مارتن عن الموسيقى سمعوها من جهاز تشغيل متدهم للاسطوانات. أما معرفتهم بالأغاني الحديثة الراسمة الانتشار فلا تتعدى وصول بعض التقطيفات الى سمعهم من أجهزة الراديو المجاورة.

عندما حانت شارلوت كانت فلافيا قد خلعت ثيابها فالرعب الذي سببه لها كيث نجح في تهدئتها.

جلست شارلوت على حافة فراش أختها قائلة:

«فلافيا. أنا آسفة لما حدث. ولكن كيف كان لي أن أعرف أن أيام هاملتون له علاقة بعمارتك أصحاب البخت؟ لم يكن يبدو عليه أنه سائح غني. وأنا لم أخبرك عن لقائي معه لأنك كنت في حال انفعال شديد بشأن الفلل. فكنت أنك لن تهتمي بهذا الموضوع الأبعد عودتك».

«أين التقيت به؟»

«أوه... على بعد أميال قليلة من الساحل».

«أنت تعرفين أنه ما كان لك أن تتحدثي مع أغراب».

«ولكنك تحدثت مع جون».

بعثا وضع الهاتف فجون يأتي سناً أنا لم أكن لأصادق رجلاً في سن هاملتون هذا. فيوسع أي شخص أن يرى كم هو كريه».

«كريه؟ لماذا تقولين هذا؟»

«أظن أنك استطعته».

«ليس في بادئ الأمر ولكني استطعته فيما بعد».

«ما كنت ستفعلين ذلك لو أنك رأيته وهو يتصرف بحماقة مع تلك الفرأة».

«يتصرف بحماقة ؟ ماذا تعنين؟»

«كانا يرقصان معاً وكانت تحيط عنقه بذراعيها، بينما كان هو يهمس شيئاً في أذنها... بل أنني رأيته يقبلها - أمام الجميع. أعتقد أنه كان متدنياً... وكانت هي التي جعلته يتصرف. فقد قالت له شيئاً مني... أعتقد أنها كانت تهزأ بثديي. وهي ترتدي ثوباً من الحرير الشيفون وكثيراً من المجوهرات. بعد ذلك ظل يحدق في. ثم طلب من جون أن يقدمه إلي. وبجهد أن سمع اسمي قال: «أنت أخت شارلوت؟» ثم سألني لماذا كان واضحاً بحرمان بثديي. كنت - كنت أود أن ابتلعني الأرض في تلك اللحظة عاد جون ومعه مشروب لي. ولسكن هاملتون هذا رفض أن يتركني أتناوله ويشربه هو وعندما غضب جون دفعه الى أحد المقاعد وطلبني من فراعي ليعيدني الى المنزل. قائلاً لذلك الرأسمدار: «سأعيد هذه الطفلة الى منزلها فقد تأخرت عن موعد ذهابها الى الفراش». هذه الطفلة! يا له من جبان حقاً وفي تلك اللحظة كان الجميع يحملقون بي».

«كان محقاً. فقد تأخرت فعلاً عن موعد ذهابك الى الفراش. ولا اعتقد أنك تصفينه بأنه كريه لمجرد انه استنتج أنه ليس من المفروض أن تكوني في مثل هذا المكان».

«ليس هذا هو كل ما هنالك. فقد عاملني»

انسحت عينا شارلوت وهي تقول:

«ماذا؟»

«قال: «والآن - تعرفين ما هو العناق. فلا تدعي فضولك يقودك الى التهلكة مرة أخرى. لو لم أكن قد التقيت بأختك، ربما كنت ستندمين على مغامرتك الطائشة هذه. ماذا كان يعني بقوله هذا؟»

«أعتقد أنه يقصد أنه لو لم أكن قد ذكرت اسمك، لم يكن سيتعرف عليك، وأنك ما كان يجب أن تذهبي الى هناك».

«كيف عرف هذا؟ من المؤكد أنك قلت له أكثر من اسمي».

REMA

«لقد تم رغم أنف أكبر عدو سدّاً أبي لا يسمح لك بالخروج مع الشبان».

«لماذا هذا الشخص غريب! أكيد أنك جننت. ليس من حقك أن تناقشي عاطفتي».

«لم أفعل ذلك تماماً. جلست هذه الصيرة صديقة استطراداً التي، كان يتحدث عنه، بالقطع أكثر تبادلان جديداً ما طبيعية خاصة. هل لي أن أسأل ماذا كنتما تتكلمان؟»

أدركت شارلوت أن عليها أن تقول القليل الحقيقة وحدون أن تكشف لها عن مكان لقائها بهامشون. شرحت لها كل شيء، وكيف أنه خائفها أيضاً، لأنها أكبر سناً من خليلتها.

استشاطت غلافيا غضباً من هذا الاعتراف.

«شارلي! يا له من أمر فظيع بالنسبة لوالدك! لم يكن تقديراً بل إراحت ان ذلك العجائز».

ارتعشت غلافيا تقززاً لاستعادتها هذه الذكرى الثالثة.

«حسناً ارأيت فيها؟ أما أنا فقد كرهتها حتماً. أن هذا يثبت كم هو شخص سيء. لما من رجل مهذب يقدم على خيانة وصديق وعدق تلك المرأة في يوم واحد».

كانت هناك خطة صممت قبل أن تقول شارلوت.

«أنا لعبد سأقوم، تصبحين على خير».

ولكن برغم الساعة المتأخرة والتوتر غير المعتاد الذي تعرضت له طوال اليوم، لم ولت ليس بقليل قبل أن تتمكن من النوم. كان آخر ما تذكر فيه عادة قبل أن تغمض عينيها هو منزل جزيرة سولبلان الذي ستملكه، ولكن الليلة لم يكن بوسعها أن تفكر في المنزل بدون أن تفكر في إيام هاملتون.

هل كانت غلافيا محقة؟ هل هو حقاً رجل سيء؟ ومن هي تلك المرأة التي تدعى نادا؟

ولراحة بال الفتاتين، لم يثر كيث مارتن صباح اليوم المثال ما أزعجه في ليلة الماضية.

بعد الإفطار أعطى رافائي الأولاد الثلاثة دروسهم أما شارلوت فقد أعفيت من هذا الروتين منذ عيد ميلادها السادس عشر. إلا أنها حتى الآن يدفي عليها أن تخصص بضع ساعات كل أسبوع للدراسة، ولكنها أصطيت حرية

اختيار مكان وزمان إنجاز تلك المهمة ما دامت تقرأ الكتب التي يختارها لها أبوها. ومعنى يضمن أنها لا تهمل واجبها كان رافائي يضع لها امتحاناً كل شهر تقريباً أو يطلب منها كتابة بحث في موضوع درستها الخاص.

بعد تناول وجبة الغداء، اصطحب رافائي أولاده الثلاثة وأخواتها الى المكتبة العامة في العاصمة. وبينما كانت أمها و غلافيا منشغلتين بعض الإصلاحات المنزلية استحبت شارلوت الى أقصى الشرفة لكتابة مذكراتها وحينذ رفعت رأسها وتطلعت صوب البحر عندما شدها أرز بعيد لصوت هدير. كان هناك زورق سباق قرمزي يغير وسط مياه الخليج مخيلاً من ناحية سوات بوينت.

ومع أن عينيها سجلتا بريق ذلك الزورق الزاهي كان عقلها مستغرقاً للغاية مرت بضع لحظات قبل أن تعره الى الماضر. وفي نفسها ادركت ان الزورق حول صاره رياداً يقف في خط نبيه دائري واسع ليتنهي بالقرب من مرفأ عائلة مارتن دائري من هناك.

تسللت فيرات مارتن بعدما أصبح جلياً أن زائرة غامضة تعرض.

ولكن ما من ناحية من بنائها تطرحت تلاجابة. أما هي فلم تلحظ التعبير الذي علا وجهيها والذي يؤكد أنه كان بوسعها أن تفعلا ذلك.

وربما كان ايام يقترب من المنزل رات أنه كان حليق الذقن اليوم وأنه يرتدي قميصاً وسروالاً ملتصقين بجسده، بطريقة تختلف عن ملابس أبيها وأخوتها.

وصل الى حافة الشرفة وقد بدا عليه أنه لم يلحظ القادمين. ومد ابتسامته فليان التي ابتسمت في حيرة لتحيته، ثم قال:

«مساء الخير. هل أنت السيدة مارتن؟ أعرفك بنفسي، اسمي هاملتون».

مدت يدها لمصافحته وقالت في ترد:

«كيف حالك؟ زوجي ليس في المنزل الآن أخشى. جئت لرؤيته؟»

«نعم ـ كنت أمل أن أراه».

«أخشى أنه لن يعود سريعاً. أيمكنك أن تخبر غداً؟ هل هناك رسالة يمكنني ابلاغه إياها؟»

«أنا لست هنا لمهمة معينة يا سيدة مارتن. أنها لمجرد زيارة اجتماعية».

REMA

«أوه»

للحظة وقفت عيلين مأخوذة. منذ زمن لم يأتيهم زائر فأحست بالاضطراب.

«ربما جئت في وقت غير مناسب»

«أي كلا. كلا على الاطلاق. تفضل بالجلوس. كل ما في الأمر أننا لا نرى كثيرا من الناس نطلت..»

جمعت شتات نفسها ثم استطردت قائلة:

«هذا هي فلافيا ابنتي الكبرى»

«كيف حالك يا آنسة مارتن؟»

كانت شارلوت قد تركت مقعدها فلم يمكنها أن ترى وجه أختها هذه اللحظة ولكنها كانت ترى وجه ايلام. لم يكن في تعبير وجهه ما يدل على أنه ليس بحاجة الى هذا التعريف.

ثم قالت عيلين قبل أن تعرفه بشارلوت:

«فلافيا، العبي وأيلفي فيوليت أن تدبرا زائراً؟ ماذا تفضل يا سيد هاملتون؟ قهوة أم شراباً باردا؟»

«شراب بارد لو سمحت»

وبينما كانت فلافيا تجري الى الداخل واصلت السيدة مارتن كلامها موجهة شارلوت:

لم يمد ايلام يده هذه المرة وبدت عيناه الزرقاوان باهتمام واضح وهو يقول:

«مرحباً مرة ثانية. لقد التقيت أنا وشارلوت من قبل»

لاح الفزع على عيلين وهي تقول:

«هل التقيتما من قبل؟»

«نعم.. بالأمس. وبدائي احمدلي على أحد شواطئها المفضلة. في البداية وأظهرت عبقها لكنها لانت قبا بعد وسمحت لي أن أقاسمها غداءها»

لم تسأل عيلين عن سبب لهاهل شارلوت ذكر تلك المقابلة. فهي تعرف السبب. اذ كان السبب نفسه الذي جعله الآن حين تذكر أنها ستضطر لأن تقول لزوجها عن زيارة السيد هاملتون سيكون عليها أن تواجه استياءه بل ربما غضبه لما قد يعتبره اقتحاماً غير مبرر لحياته الخاصة. ولكنها أبعدت ذلك القلق

لتشعر بها بالغبطة في التحدث مع زائر ما.. أي زائر

«هل جئت لتقيم هنا يا سيد هاملتون؟»

«لم أحضر بهذه النية. ولكن الخاطر مر بعقلي. أعتقد أنك أقمت هنا عدة سنوات!

فهل تنصحيني بذلك؟»

«المناخ هنا رائع، والجزيرة في غاية الجمال وأقدر. ولكن هناك بعض السلبيات.»

«وما هي؟»

«أعتقد أن السلبية الأساسية هي سعوبة حصولك على دخل يغطي نفقات المعيشة. ولذا كان من الصعب على ذلك النمط من الناس الذي يفضل الهجرة الى استراليا أو كندا على أن يأتي الى هنا فلا توجد فرص عمل تكفي لتغطية حاجات السكان الأصليين فحزر الفقد الغربية تناسب فقط الأثرياء أو تلك، التي على شاكلتنا وترضي بحياة بسيطة. زوجي كان يعمل ناظر مدرسة. أما الآن فهو كاتب. ولذا يمكننا أن نقيم في المكان الذي يحلو لنا. على أنت أيضاً حر بهذا المعنى يا سيد هاملتون»

«نعم بكل المعاني»

«أليس لك أسرة ترعاها؟»

«كلا. لا أحد غيري»

«في هذه الحالة، أن الشعر بقدر من الوحدة هنا؛ إن هناك الكثير لتفعله طوال النهار ولكن للمكان يصبح هادئاً للغاية بعد غروب الشمس. أعتقد أن باربادوس أو ترينيداد قد تناسب أكثر مع حياة الأعزب»

«نعم معك حق. كيا قلت لك أنا لم اعط هذه الفكرة تفكيرا جادا بعد.

«أين تقطن الآن يا سيد هاملتون؟»

«ليس لي منزل. اشأت في الكثيرا ولكنني قضيت معظم سنوات حياتي بعد بلوغي سن النضج في الترحال»

«أوه، حقاً ؟ يا له من شيء مثير»

انتظرته حتى يكمل حديثه، ثم تردد في أن تسأله عندما لم يفعل ذلك.

أما شارلوت فقد كانت أقل حياء في رغبتها إرضاء فضولها فقالت:

«هل البحت ملكاتك؟»

REMA

بالبحث.

بعد فترات الأيام تذكرت أنها لم تعرف بأمر هذا البحث إلا بسبب تساؤل فلانا خارج البيت، فاستطردت:

«أشرت إليه في حديثك أمس.»

«حقاً، لا أذكر، لكن هذا البحث ليس ملكي، انه ملك تارا مونتيفالكو... الأميرة مونتيفالكو.»

«الأميرة مونتيفالكو! هل تعني أنها أميرة حقيقية؟»

«هذا يعتمد على ما تعنيه أنت بكلمة حقيقية. فمونتيفالكو هو لقب من بين مئات الألقاب الايطالية الغامضة. انها اليوم مجرد أسماء. اكتسبت تارا هذا اللقب عن طريق الزواج.»

تذكرت شارلوت ما قاله لها فلانا عن ايلام وتارا فتساءلت:

«وأين الأمير مونتيفالكو؟ هل هو معكم على البحث أيضاً؟»

«كلا، انه في مكان ما في أوروبا. فهما منفصلان.»

عادت فلانا وهي أفضل أكواب عصير الليمون وعندما وقف ايلام، رمقته بنظرة عصبية عدائية. غمز اليها فصعدت الدماء الى وجهها. ولكن هيلين لم تلحظ غمزة العين ولا احمرار الوجه. أما شارلوت فقد لاحظتهما ومن هذه اللحظة وثقت أنه لن يجوز أبدا منها ويكتشف أمرها. ولكن في هذه الحالة ترى لماذا جاء؟ مكث قرابة نصف ساعة تحدث في معظمها مع أمها. وعندما نهض ليرحل سار معه الجميع حتى الزلقة. ثم يصافح شارلوت ولكنه ربت على كتفها وكأنها في عمر كيت قائلاً:

«وداعا يا صغيرتي. شارلوت شكرا لدعوتي الى الغداء. ولكن الأفضل ألا تكوني الدعوة.»

وعندما اختفى الزورق عن الأنظار قالت شارلوت لأمها:

«أرجو ألا تكوني خائبة لأني أحدثت معه بالأمس.»

«كلا... ولكن ليس من الحكمة أن يكون المرء وحيداً بينا الشكل مع الأغراب. هل استفدت منه؟»

«لم أكن به يبدو أنه مشتت.

أضافت هيلين تلك الكلمات الأخيرة وهي تفكر بصوت عال.

«ظاهراً، انك هي الكلمة التي كنت أبحث عنها بالأمس. كنت أعرف أن هناك كلمة تصفه تماماً.»

«هل أنت متأكدة أنك تعرفين معنى هذه الكلمة يا عزيزتي؟»

«بالطبع. فأنا اذا لم أعرف معنى كلمة أبحث عنها في القاموس. وجدت تعني مسرف وغير مستقر وكنتها عادة تستخدم لوصف الأشخاص... الأشخاص الذين يبددون حياتهم.»

أخذت أمها تعضها. فكانت تظن أن شارلوت ما زالت صغيرة. هل القيام بعملية ربط بين ما تقرأ في الكتب وبين الناس الذين تقابلهم في الحياة. كانت هيلين تشك في أن أيا من أبنائها يتعمد عن تفهم أمور الحياة كما كان يريد فهم أبوهم. ورغم وعيها هذا كانت متفاجئة لما أن تعرف أن شارلوت التي تبدو غاية في البراءة يوسعها أن تكون رأيا صائباً بالنسبة الى شخصيات البشر.

«هل ستقولين لأبي عن مجيئه؟»

«هل هناك سبب يدعني من ذلك؟»

«كلا... بالتأكيد. ولكنه لا يحب الأغراب عادة. وأعتقد... حسناً أعتقد أن معرفة الناس أمر مثير للاهتمام.»

«ولكني لا أظن أن السيدة هاملتون أو والدته يجدون فينا شيئاً يثير اهتمامهم. وأشك في أنه سيزورنا مرة أخرى ولنا قليس من الأهمية في شيء أن يستطلعه أبوك أم لا. فهيا بنا الى عملنا.»

ولكن عند عودتهما الى الشرفة لم يكن من السهل على أي منهما أن تركز في العمل الذي أوكلته هيلين. هاملتون. فجلست شارلوت تقطع قلمها وتفكر في أصحاب البحث وخاصة تارا مونتيفالكو أما هيلين. فكانت تشعر بالقلق. مع أنها كان تتوقع، وتتهيب، في أن واحد، هذا الوقت الذي يبدأ فيه أبناؤها الاعتراض على آراء. فالفاس لم يتخيل اليها أن فتاتي أول بادرة لعدم الارتياح من ابنتها الصغرى.

كانت تتوقع أن فلانا ستكون أول من سيضربه. ليس لأنها الكبرى ولكن أيضاً لأنها لا تعتق مع أبيها كثيراً. فالفاس كان يريد أن يكون كل أولاده

REMA

ذكوراً وجاد مولد فلافيا خيبة أمل كبيرة له. ثم صار يفضل شارلوت لأنها أكثر ذكاء و لا يجهد نفسه كثيراً لاختلاء هذا التفضيل.

ولكن عندما عاد الأب لم تبلغه هيلين بأمر الزائر فقد بدا غريباً وعلى غير عادته وكانت نظرة واحدة في وجهه كافية لأن تنسيها كل شيء.

وبعد أن «لف الى غرفة نومه ومن ورائه أمها بادرت شارلوت اختوتها متسائلة:

«مالة حدث؟»

أجابها روب قائلاً:

«لا أعرف». كان في صحة طيبة حتى وصلنا الى منتصف طريق العودة. ثم فجأة أمس بألم فظيع».

وأضاف بيتر قائلاً:

«كان وجهه متقلصاً وكان لا يقوى على الكلام. كان ذلك شيئاً فظيعاً».

ركضت شارلوت نحو غرفة والديها وتساءلت:

«هل أذهب لأحضر الطبيب؟»

أشرى راغاس قبل أن تتكلم زوجته قائلاً في غضب:

«لست في حاجة الى طبيب. أرجو منكم به فإن أحدكم الركوني في سلام. لا داعي للقلق وإجراء أستريض».

عندما ذهبت الفتاتان لتناما تلك الليلة تساءلت فالنة:

«ما تصورك عن سبب مجيئه؟»

«يجيء من؟»

هكذا ردت شارلوت شارة الذهن. فقد كانت قلقة بشأن أبيها

«هذا الرجل الذي يدعى هاملتون. من سيكون؟»

«ليس لدي أدنى فكرة. هل هذا أمر هام؟ كنت أتمنى أن يسمح أبي بمجيء الطبيب. فهو يبدو مريضاً جداً».

«لن يفيده أن يفقد أعصابه ـ وهذا ما سيحدث إذا جاء الطبيب بدون إذن منه. ولكن ليس من العدل بالنسبة الى أمي. فهي قلقة الى حد المرض».

ماذا لم أتفهم أبداً السبب الذي جعلها تتزوجه.

« فلافيا»

صاحت شارلوت في فزع

«صهاً هل تتفهمين ذلك أنت؟ إنه لم يحاول أبداً أن يجعلها سعيدة. أما هي فعليها أن تفعل دائما ما يريد. عليها جميعاً أن تفعل ذلك».

«أوه. اسكتي. كيف لك أن تكوني بهذه القطاعة! إن أبي مريض. وكل ما تقولين بشأنه هو أنك لا تفعلين ما تريدين».

أدارت كل منهما ظهرها للأخرى. ولم تتبادلا كلمة واحدة بعد هذا.

بدا راغاس مارتن في اليوم التالي وقد استعاد صحته تماماً. فاستقبلت فلافيا والأولاد الثلاثة حوله الى الحياة الطبيعية ولم يذكروا في الأمر مرة ثانية أما هيلين وشارلوت فما زال يساورهما بعض القلق.

وبعد مضي ثلاثة أيام رأت شارلوت زورقاً أحمر يحرك ينطلق عبر الخليج. أثارت رؤيته فضيحة من جديد وقررت أن تذهب لتشاهده.

ولأن الأولاد كانوا يستخدمون الزورق في ذلك اليوم ركبت الأوتوبيس ونزلت قرب طريق يتحدر بشدة نحو الشاطئ.

كان الشاطئ خارياً. جلست شارلوت تستظل تحت النخيل. وراد أجاطت ساقيها بذراعيها وهي تحدق في التركب الأبيض الضخم الذي بدا مهجوراً. لم يكن الزورق مربوطاً بالسلم الحديدي من جانب اليخت كما أوحى بأن الأسرة موتيفيلكر وضيوفها خرجوا في جولة استكشافية.

خلعت شارلوت ثوبها الذي كانت ترتديه فوق رداء البحر الأزرق الباهت ونزلت لتستحم في «بادي». الأمر لم يكن لديها نية للاقتراب من اليخت. ولكن بعد أن مكثت في الماء ولم تظهر أية بقعة للحياة فوق سطح اليخت لم تستطع المقاومة وبدأت حتى أمسكت بالسلم وبعد خطوات كانت قد وصلت الى قمته.

وبينما هي واقفة على السلم في تردد سمعت صوتاً يقول:

«مرحباً... من أنت؟»

كانت شارلوت تنسحب عن السلم فزعاً فحتى لو كان هذا حل الدخول الى هذا المكان لكان الصوت قد أفزعها. لقد كانت واثقة تماماً من أن أحداً لم يكن في

REMA

ناولها منشفة قائلاً:

«تناولي هذه، رأيتك من قبرتي وأنت تفترين. كان منظرك ساراً للغاية. هذا البحث أصبح طوقاً لنجاة الغرقى. تعالي الى السطح حيث الشمس وساعد لك شيئاً لتشربيه. اسمي جون وأنت؟»

«ش... تشارلوت».

«تشارلوت؟ ألست شارلوت مارتن؟»

أومأت برأسها تراجع الشاب خطوة الى الوراء يرمقها من أسفل الى أعلى بابتسامة قائلاً:

«إذن أنت الأخت الصغرى لفلانيا؟»

لم تستوعب شارلوت الطريقة التي كان يلخصها بها فظلت المنشفة حول نفسها مبرورة لكونها غطتها حتى ركبتيها. ورغم أن ليام امتدحها بالطريقة نفسها في الجزيرة، لكنها لم تحس كالآن بمثل هذا التصور من عدم الارتياح والتقزز مع أنه كان وسيماً للغاية.

سألته في عبوس:

«هلا يضحككِ؟»

«أعطانا ليام صورة عنك على اعتبار أنك جزء هامة من الطريقة التي أصبحت بها عائلة. أنك في العاشرة من عمرك تقريباً. حلماً سأره له هذه الدعابة في المستقبل. وبالنظر الى سعيه توقعت أنه يتوق شيئاً عندما أثار هذه الضجة حول هيئة. أعتقد. تفي أنه يتعقب الصيد الأسهل ويلزم الصمت تماماً بشأنه».

أخذت كراهية شارلوت له تتصاعد مع كل كلمة.

«هلا تعني بقولك «بالنظر الى سعيه»؟»

«حسناً، لا أعلم تصورته من فنجان الكشافة؟ اخذت تبدو بطيئة الفهم قليلاً. أما أنت فأكثر ذكاء».

«يا لك من فظ! كان فعلاً غباء من فلانيا أن تعجب بواحد مثلك».

«أسف، لم أقصد الإهانة. فأنا استطعت أختك. ولكن ما شأني أنا استطاعتك أنت أكثر! تعالي لتشربي شيئاً ونصبح صديقين.

«كلا، شكراً، جئت لأرى ليام، أنا لم يكن مرجوعاً عن أنظره».

«يوسعك أن تنتظري نصف ساعة أليس كذلك؟ أنهم في فترة راحة بعد الغداء».

«لا يهم. فالأمر ليس بيده الأهمية».

«كلا، لا تذهبي! أنا وائق من أن ليام يود أن يراقد. و تارا أيضاً».

«تارا؟ إنها لا تعرفني».

«كلا، ولكنها دائماً تهتم بالتعرف الى صديقات ليام. الأخريات. يجب أن تنتظري حتى تلتقي بها. ستحبان بعضكما بعضاً من النظرة الأولى».

برغم أنه كان يبدو جاداً، كان لديها إحساس داخلي بأنه يقول هذا تهكماً. ومع أنها لم تأت أصلاً الى البحث لهذا الغرض، أحست أنها تود أن ترى ليام مرة أخرى.

«حسناً، سأنتظر».

صعدا الى سطح البحث ثم بادرها قائلاً:

«سلافا لشربين».

«الماء من فضلك».

ضغط على جرس بجواره ثم فتح مستودعاً بدا بداخله ثلج، كبيرة الأثلاج.

مما هذا؟»

تساءلت عندما انتقى إحداها ووضعها في جهاز به قرصان دواران.

«نعم تساءلين! هذا ؟ يا إلهي ألم ترى من قبل جهاز تسجيل. هذا المكان بدائي أكثر مما تتصورين. وعلاوة عن جهاز التليفزيون».

«هناك محطة للتليفزيون. ولكننا لا نملك جهازاً».

بدأ الجهاز يخرج صوت موسيقى. وظهر خادم صغير أسمر من دول أمريكا اللاتينية فأمره جون بإحضار المشروبات.

جلست شارلوت على حافة أحد المقاعد أملة ألا تتلف ثيابها القيلة فوق المقعد الفخم. وظهر الخادم مرة ثانية وقد حمل المشروبات على صينية من الفضة. ابتسمت له شارلوت قائلة:

«شكراً لك».

وبعد لحظات أحست اليها سيدة. كانت شقراء. دقيقة الجسم ترتدي رداء بحر

REMA

أخر وصندلاً مذهباً مزيناً بأحجار حمراء. كان الجزء العلوي من وجهها قد غطته نظارة شمس ضخمة مما جعل شارلوت ترى أول ما ترى شفتيها وقد طلتهما بلون أحمر لامع.

«أوه، ها أنت يا جوني... من هذه؟»

«صديقة للبيام. اسمها شارلوت. شارلوت هذه جينين أمي.»

مدت شارلوت يدها رافعة جينين نظارتها ثم حاجبيها قائلة:

«صديقة للبيام؟»

متلك الدقة الصغيرة الظريفة التي لفيها عندما كان يتحول وحده.

أطلقت أمه ضحكة عابثة قائلة:

«لم تذكرت، أين تارا؟ هل عرفت أن عندنا ضيفة؟»

وقبل أن تجيبها صعد الى السطح عدد أخر من الناس. وبعد أن عرفهم جون بشارلوت أخذوا مثل أمه، يتفاحصونها ويتفاحسونها. الأمر الذي جعل شارلوت تشعر بمزيد من عدم الارتياح حاولت ألا يظهر هذا عليها. وان لفت أن يجيء البيام في هذه اللحظة لم تكن تفهم لماذا يبدي الجميع كل هذا الاهتمام بها.

فجأة ظهرت أصرأة أخرى. وأدركت شارلوت فوراً أن هذه هي تارا مونتيفالكو. وعلى خلاف الجميع الذين كانوا في ثياب السباحة، كانت ترتدي بيجاما حقيقية من حرير رقيق زاهي الألوان. كانت بشرتها سمراء. وكان شعرها أسود قصيراً ملتصقاً برأسها وكان لديها أطول أهداب رأتها شارلوت في حياتها.

«عزيزتي تارا، تعالي لتتعرفي بصديقة البيام. بدأت أفهم لماذا يقضي معظم الوقت وحده بعيداً عنا. شارلوت، هذه هي مضيفتنا الأميرة مونتيفالكو.»

أحست شارلوت أن الجميع يجيبون أنفاسهم وكان يوسعها أن تحس بالتوتر الذي يلف المكان.

قالت في تردد:

«كيف حالك؟ أمل ألا يكون لديك مانع للقدوم. جئت لأتحدث مع السيد هاملتون.»

كانت عيناها الواسعتان الداكنتان لا تكشفان عما يدافعها. ثم قالت بصوت غليض جذاب:

«سأرسل شخصاً يبلغه بذلك. ولكن قبل كل شيء، ألا تحبين تسريح شعرك، وارتداء قميص حتى تجف ثياب البحر فيما من شيء يثير الاحساس بعدم الراحة أكثر من الجلوس في ثياب مبللة. تعالي الى غرفتي.»

كان جناح الضيفة بداية اكتشاف لشارلوت. كانت جدران القصرة مغطاة بحرير أزرق مشرح بينما الأريكة والمقاعد مغطاة بحرير ليموني اللون.

وهناك رتبة تكسوها أغراض خشبية تقود الى قسم الثوب. دفعت أحد تلك الأبواب لتكتشف عن خزانة ملابس مليئة بالثياب. التقت منها واحداً ذا ملمس ناعم ولون أصفر.

«من الأفضل أن تأخذي حماماً لئن يستغرق منك هذا أكثر من خمس دقائق.»

قادتها عبر غرفة نوم ورؤية مذهبة الى حمام وملحق بها بلون وردي ناصع تاذن كقلب محارة ضخمة.

«عندما تكونين مستعدة تعالي الى غرفة الجلوس.»

خلعت شارلوت ثيابها استعداداً لأخذ الحمام وهي تشعر بتحول من تطور الأحداث. كان هناك دوش في منزل أسرة مارتن ولكنه بدائي للغاية بالمقارنة مع القصرة المصنوعة من الزجاج والمعدن ونظامها المعقد لتدفئة الماء.

وعندما عادت الى غرفة الثوب كان الثياب مفروشا قليلاً كذلك كان الثياب الواقع في نهاية الردهة. فسمعت تارا تتحدث مع شخص ما، ويبدو في صوته الضيق وهي تقول:

«كلامك مضحك وغير معقول. فأي انسان يستطيع أن يرى أنها مجرد طفلة.»

جاء صوت جينين مجيباً:

«طفلة جذابة جداً يا عزيزتي.»

«نعم، مشكورن رائعة بعد سنوات قليلة. ولكنها الآن سذاجة بالدرجة التي لا تجذب البيام.»

«هل أنت واثقة من ذلك؟ أنا لا أريد أن أثقلك يا عزيزتي ولكن يجب أن تعترفي أن أمره أصبح محيراً في الآونة الأخيرة. أين يذهب بقربه؟ انه ضيفك الخاص. لو

REMA

كنت مكانك لأحسست بحرج في كبريائي.

«نعم أتوقع أن تكوني كذلك. ولكنك أكبر مني سناً بكثير. وعندما تبلغ المرأة سنك تصبح عادة أكثر تحفيزاً وأقل تشدقاً».

عند هذا الحد أدركت شارلوت أن ليس من حقها أن تستمع الى هذا الحوار. فأغلقت الباب. ولكن ما سمعته، على قلته، كان كافياً ليجعلها تتراجع أمام هؤلاء الناس برغم أنهم يبدون مهذبين. غير قادرين على الأذى لكنهم في حقيقة الأمر كالأسماك البحرية المتوحشة.

لم تكن قد انتهت من تنشيط شعرها عندما عادت تارا الى غرفة النوم وقالت:

«يبدو أن إيلام أخذ الزوري وذهب الى مكان ما. لكنه قد يعود سريعاً. تعالي وتناولي معي وتعلمي على كل شيء. عن نفسك».

تبعتها شارلوت الى غرفة الاستقبال حيث جلست تارا على الأريكة في أناقة. وأخرجت علبة السكائر قائلة:

«أتدخين؟ كم عمرك؟»

«أنا في السادسة عشرة من عمري. السابعة عشرة تقريباً».

أجابت شارلوت وهي تجلس بارتياح على حافة المقعد.

سألتها تارا أسئلة عدة، لم أعتبر الخادم الذي على صينية من الفضة كان وسعها أن تلتهم الشطائر في لقمة واحدة لكنها نجحت في أن تستغرقها لعدة دقيقات. كانت تخشى أن تسقط أو تسكب شيئاً. كما أن احساسها بأن المرأة تراقبها جعلها أكثر عصبية.

«هل هناك رسالة أبلغها لإيلام إذا ذهبت قبل أن يعود؟»

«أوه.. كلا، شكراً. جئت فقط لأوجه له ثلاث أسئلة سترحلون فوراً».

«نعم، سترحل غداً. هل تستطيعين؟»

«نعم، أنه يحبو الطيارة».

ردت شارلوت في حذر بينما أطلقت تارا ضحكة خفيفة وبدأت في تهكم:

«هل تظنين كذلك؟»

«ألا ترين أنت هكذا؟»

«لماذا يعتمد على ما تعنين بكلمة لطيف. فتى لطيف في بعض شخص مسالم ولكنه عال. فكيف تفهمين أنت هذه الكلمة؟»

«أنه ودود وطيب في رأيي».

ضحكت تارا مرة أخرى قائلة:

«أنت غبية بريئة. فمعظم الفتيات اللواتي في سنك يفهمن الكثير عن الرجال الى ان يتعرفن على ذلك النمط الذي يعرف بالنوع الخطير».

«لماذا المتصدين بالنوع الخطراء»

«النوع المتخصص في الايذاء.. إيلام ليس رجلاً لطيفاً يا عزيزتي، بل أنه رجل مؤذ. وسمعته الفاسدة هي التي جعلته جذاباً الى هذا الحد. وأنا نفسي أنتمي الى هذا النمط لكن الفرق الوحيد بيننا هو أنه كان عليّ أن أتعامل من أجل الحصول على ما أريد. أما إيلام فقد وردت أموالة. لقد كان حراً وثرياً».

نهضت السيدة ونظرت من فتحة في جانب الباب بعد أن سمعت عن بعد هدير محرك.

«ها قد عاد الزوري. سيكون معنا بعد دقائق. ماذا تنوين أن تفعلي بحياتك؟ ولا أعرف. لم أفكر في الأمر بعد».

«لقد يجب أن تفكري. أنت قد لا تدركين أنك في موقع ممتاز هنا. فعندما كنت في السابعة عشرة من عمري كنت حبيسة مدينة صغيرة في انكلترا. كان عليّ أن أذلل وأخرج للبحث عن ثروتي. أما أنت فيمكنك أن تنتظري حتى تأتيك فرصتك وأنت في مكانك ـ ربما فوق بقعة مثل هذه».

ثم قالت شارلوت شيئاً في النهاية تأثرت بسحر تارا، وأحست بالارتياح إزاء صداقتها غير المتوقعة. ولكن كان هناك شيء متغير في نبرة تارا. وبينما هي تسمع صوت الطراد الزوري سألت شارلوت نفسها ما إذا كان إيلام أيضاً سيبدو الفتاة غير محبب وسط هؤلاء القوم.

بعد لحظي يضع دقائق دخل إيلام ولاحظ على الفور أن تارا لم تكن وحدها. لم يبدو مسروراً لرؤية شريكتها فسأل بفظاظة:

«ماذا تفعلين هنا؟»

أجابته تارا قائلة:

REMA

«جادت القرائد
مأوه! لفتاة»

تساءل وهو ينظر الى شارلوت بطريقة جعلتها تحس وكأن تعارفهما كان أمراً للغاية.

أجست بالدماء تصعد الى وجهها وقد اربط لسانها.

هزيا من أجل أمر خاص، سأركبكياه

قالت نارا تلك الكلمات وهي تتجه صوب الباب.

اليه ليام تعوهد، وبيد خفيفة على وسطها، أرجعها نحو الأريكة. جلسا سوياً، ملتصقين، ثم جذب نفساً من سيكارتها.

للحظة أخذا يتبادلان النظر في ابتسام وأنغمة خاصة الأمر الذي جعل شارلوت أكثر توتراً.

مأتيس هذا الثوب الأصفر ملكك يا نارا؟»

تساءل ليام بعد أن لاحظ الثوب الزعفراني. ربما لم يكن يقصد ولكنه جعل شارلوت تحس أنه من الرفاهة أن ترتدي ثوبا صمم لراحة أكثر منها أناقة ورشاقة.

«نعم، قطعت شارلوت المسافة بين الشاطيء، واليخت سباحة. ولم يكن ممكناً أن تبقى في ثياب مبتلة.

قالت شارلوت قائلة:

«يجب أن أذهب الآن. لقد جئت لأودعك وأشكرك على أنك لم تقل عن الجزيرة. مأية جزيرة؟»

قالت نارا متسائلة.

«عندما التقيت بشارلوت كانت تعاني على ملكية خاصة مهجورة.

ذكرته شارلوت قائلة.

«وأنت أيضاً.

تجاهل كلماتها وبادرها متسائلاً:

«أين ملابسك لأعيدك الى المنزل؟»

«لا تقلق سأعود بالطريقة التي أتيت بها.

ضحكت نارا وأبعدتها الى غرفة الثوب. وهناك بقربها قائلة:

«هل تفهمين الآن إمكانية بقائك وحدك مع ليام بعد ما فعلته لك هند؟ لا تقلقي فأنت في مأمن معه. ليام قد يكون فاسقاً ولكن لديه القدرة على التمييز وبرغم أنك جذابة جداً لكنني لا أظن أنك بلغت جماله بعد.

تساءلت ما سيكون رد فعل نارا لو قالت لها بأنك قادرة على التمييز كما تظنين. عاطفتي وعاطفتي أختي أيضاً. ولكن ربما يكون العناق أمراً في بساطة الابتسامة بالنسبة الى قوم مثل هؤلاء. انغمسوا في اللذات.

بعد أن انتهت شارلوت من ارتداء ثيابها قالت:

«شكراً لك على الثياب أرجوك لا ترهقي نفسك بتصاميني الى البحث ووداً لقد.

أفصحت لها نارا الطريق قائلة:

«وداعاً يا شارلوت.

وجدت ليام واقفاً بجوار السلم المطل الى جانبي اليخت فقالت له:

«أنا لست في حاجة الى من يوصلني. شكراً لك. وعلى العموم تركت ملابسي على الشاطيء. فوداعاً وأمل أن تستمتعوا بقية رحلتكم في البحر.

ابتسمت له ابتسامة متشنجة ومرت أمامه لتهبط السلم. ولكن لضيقها وجدت الزورق راسيا بطريقة تحول دون خطوها في الماء من فوق السلم بل كان عليها أن تقرأ أولاً بالزورق عند تأرجحه بعد أن تسلقته في عجلة. وجدت من يمسك بها من الخلف ويدفعها نحو المقعد الأمامي برغم مقاومتها.

لم تكن لتستسلم الى هذه المعاملة. ثم لم تلحظ جيرن، ووالدته، وأخرين يراقبون رحيلها.

وعلى مقربة من الشاطيء، قال ليام:

«والآن ناهبي واجلبي ملابسك ولا تحاولي الفرار. فأنا أريد أن أتحدث معك، يا شارلوت الصغيرة.

وفي غيرة أحضرت ثوبها ومشطها وألقت بهما الى سطح الزورق ثم ألقت بنفسها من ورائها حتى جعلت الزورق يتأرجح أكثر من المرة السابقة. كان سيسرها أن يتقلب ولكن بدلاً من ذلك ارتطم مرفقها به فانفجر ليام شاتماً.

وعندما وصلا الى نقطة بعيدة من طرف الأرض أوقف المحرك وسألها

REMA

وفي نبرة صوته بقايا مرح ولد استدار نحوها مادًا ذراعه على ظهر المقعد:

«الآن، لماذا أنت غاضبة؟»

«أنا لا أحب أن يمسك بي أحد... وكأني كيس من القول.»

«أنا آسف، ولكن تلك كانت الطريقة الوحيدة أمامي لإيقافك. لكنك كنت غاضبة قبل ذلك.»

«كلا، لم أكن غاضبة. أنا فقط لا أحب الانتظار. انتظرت قرابة نصف الساعة. مأيس من القريب أن تنتظري شخصاً ما نصف ساعة، ثم أن تهرعي بالفرار لحظة ظهوره.»

«حسناً، قلت أنك آسف لوجودي.»

«وقلتُ أكون مسرورة.»

«لا أعرف ولكن من المؤكد أن هذا ما بدا عليك.»

«لوحدت، هذا كل ما في الأمر. كيف كان لقاؤك مع تارا؟»

«كانت ودودة جداً معي.»

«هل التقيت بأي من الآخرين؟»

«نعم. أعتقد أنهم بخيرون، خاصة جون بحذائه السخيف والعقد الذي يعلقه حول رقبته في حفاظة.»

ضحك قائلاً:

«لو كنت تعيشين في الكانترا لكان الحزام قد زينوا أنفسهم جميعه. ان هذا هو الاتجاه السائد.»

«كلا من المستحيل! فالعقود للفتيات وليست للرجال.»

«أوافقك. ولكن ذوقي عتيق.»

مد يده ليلمس خصلة مبللة من الشعر على كتفها وقال:

«عندما أنظر إليك أحس أنني عتيق من جميع النواحي.»

«أنت لست متقدماً في السن. كم عمرك؟»

«عمري بالسنوات الثلاثين وثلاثون سنة، ولكن بمقدار ما يذكر من حياتي فأنا في حوالي الخمسين من عمري.»

«لا تبدو في نظري مستهلكاً، بل أن جسمك يبدو أكثر قوة من جون.»

أحست فجأة أن فضيحتها تلاشى وهاويتها ذلك الاحساس الذي أحسته عندما كانا يتبادلان الحديث وهما يتنازلان غدائهما سوية.

«فلماذا جئت الى مزرعتنا ذلك اليوم لذا لم يكن صدفة أن تبلغ والدي بأمر الجزيرة؟»

لم يجبها على الفور. بل جلس يداعب شعرها في استرخاء وقد اتجهت عيناه صوب المنطقة الخضراء النائية من الجزيرة.

«أعتقد أن السبب نفسه الذي جئت من أجله الى البحث اليوم. فضول للتعرف على طريقة معيشة النصف الآخر.»

«أنا لم أدخل من قبل بعداً قط!، ولم أقابل أشخاصاً متعددين. ولكنني لا أرى سبباً وراء فضولك للتعرف على حياتنا. فنحن مثل أية أسرة عادية ليس فينا ما يثير الاهتمام.»

«أي شيء غير معتاد مثير للاهتمام. وأنا لم أعتبر يوماً أن أسرة عادية.»

«أتفكر حقاً في الاقامة هنا؟»

«ما الذي جعلك تفكرين في هذا؟»

«أنت، قلت هنا لأمي.»

«هل قلت هذا؟ ربما فقط لأجد موضوعاً للحديث.»

«تارا تقول عنك أنك غني جداً. أين ستذهب في باقي الرحلة؟»

لم يجب على سؤالها بل تساءل:

«كيف وردت حالتي الاقتصادية في الحوار؟»

وحتى تحول دون سؤاله أيضاً عن سائر ما قالته تارا عنه، بادرته قائلة:

«وكانت تتحدث عنك... انها جميلة جداً، هل هي عشيقتك؟»

وقبل أن تنتهي من سؤالها فزعت لتهورها، وأمدت نفسها لصدمة قاسية تستحقها، ولكنه قال ببساطة:

«نعم.»

نظرت اليه لكنها لم تجد تعبيرات وجهه قد تجمدت. وظلت عيناه الزرقاوان هادئتين دون فتور.

«أنا ـ آسفة ـ ما كان يجب أن أسأل.»

اعتدل في جلسته واستدار نحو حجلة القيادة قائلاً:

REMA

ما الأمر ليس سراً.

وعندما أصبح الزورق مواجهاً لمرفأ جزيرة، أمسك به وهمّ إليها بعد الثانية حتى تصل الى الشاطئ.

وداعاً يا ليام.

في اليوم التالي رأت البحث يتخطى هورتنسيا متجهاً صوب الشمال. وربما هي ترتاح بعض الأشياء أحست خليطاً من الراحة والقلق. فمن ناحية كانت سعيدة بذهابه، ولكن في الأيام التالية بدا لها أنها تحيا التي كانت راضية عنه من قبل مملأ بشكل باعث اليأس، وروتين لا نهاية له لا يتخلل بين الأكل والنوم وملء الفراغ بشكل قد يستمر لسنوات قبل أن يحدث أمر لكسر هذه الرتابة.

وبرغم أن هذا الاحساس بالمركبة تلاشى تدريجياً، لكن ذكرى ليام لم تتلاشى. كانت تعلم أنه من الحماقة أن تعيش أحلام يقظة مع رجل لن تلقاه ثانية، ويكررها بمرات. مع ذلك لم يكن بوسعها أن تتخلص من التأثير الذي تركه عليها. وبعد فترة أصبحت قادراً زيارتها لتبحث وأصبحت لا تتذكر الآن سوى لقائهما الأول. ثم جاءت تتذكره ليس كما كان ولكن كما كان يحلم هو أن يكون. وجاءت لتخلق قصصاً خيالية تقوم فيها هي وليام، الشاب البالغ من العمر عشرين عاماً بمغامرات حول العالم.

مرّ شهران قبل أن تتمكن شارلوت من أن تتسلّ مرة أخرى في إحدى رحلاتها البرية الى جزيرة سولسكاي.

وعندما وصلت الى المنزل، لم تصدق عينيها. كانت النباتات الفارغة قد جزت، وانتقلت كلها خالية من النباتات الأرضية. وفي الطرف البعيد من تلك الرقعة المفروشة، رأت عدداً من الأشجار القطرمة.

وقفت شارلوت فترة طويلة من الوقت متجمدة فاغرة فاهها دهشة. ثم تقدمت نحو المنزل وهي مشدوهة. كانت هناك مفاجأة أخرى تنتظرها فالباب الذي وضع فيه العلن، والذي كان دائماً مفتوحاً بعد أن جدّ الصدأ مفاصله، استبدل بباب آخر، باب آخر مغلق.

وبحذر دفعته، فتحرك الى الخلف على مفاصل جديدة لا تخرج صرير. وظلت واقفة في مكانها خطوات تحتها. كان المنزل ساكناً كالعادة. دخلت ثم أغلقت

الباب خلفها في عنف.

كان أول ما لاحظت في البهو هو اختفاء الفروع والنباتات المتعرشة من الدرج. وفي الطابق الكشفت وجود مرفأ صغير وأشياء أخرى تكفي احتياجات فرد أو اثنين.

وفي الطابق العلوي، وجدت أن غرفتين من غرف النوم أغلقتا. وضعت عينيها على ثقب المفتاح ولكنها لم تر شيئاً.

كان يبدو وكأن المنزل يخطه شخصان على الأقل. من هما؟ وأين هما في هذه اللحظة؟

وقبل أن تعود الى الشاطئ، بحثت في كل موقع في الجزيرة، لكنها لم تجد أي شيء آخر قد تغير. كلا. كيف احتمل أن تعود الى المنزل دون أن تجد إجابة لذلك الأسئلة؟ اذا كانت ترد أن تحل هذا الغموض، فعليها أن تنتظر مكانها. لترى بنفسها مولاء المختفين.

ظلت قابعة على الشاطئ، بعين يقظة طوال ساعتين. وفي الثالثة من بعد الظهر أحست عينيها تتمالكها من كثرة النظر صوب الماء اللامعة. أغلقت عينيها أمام هذا الوهج، وأطلقت زفرة تحررت فيا بعد الى تثاؤب. إن الجلوس ساكنة أمر متعب للغاية. واذا لم تطر قد تستسلم الى النعاس.

أغلقت على نفسي. يمس تعمل هذا؟

«كف عن هذا يا كيت.»

ضحكت وهي ناعسة.

ثم أدركت فجأة أنها ليست راقدة على الشاطئ، بجوار مزلقي، وان من يمسها الآن ليس أخاها الصغير. ترنح قلبها بعنف. ثم فتحت عينيها.

وأتصور أني قلت لك من قبل ألا تجيئي الى هنا وحدك.

جاء صوت ليام هادئاً صارماً.

«ليام!»

طرفت عيناها وهي تنظر وجهه المنحني الساكن ـ ذلك الوجه الذي توقعت ألا تراه ثانية ـ واجتاحتها موجة من الارتياح والغبطة.

ليام سيدعدها. ليام سيعرف ماذا يجب أن تفعل.. كيف تتخلص من

REMA

هؤلاء الشطانين على جزيرتها.

«أوه.. ليلى، لقد عدت! أنت الشخص الذي أحتاج إليه. عدت لتي، سوزو ستساعدني. أليس كذلك؟ يجب أن تساعدني.»

«بالقطع سأفعل - اذا استطعت ما هي المشكلة؟ ما هي أعمالك الشيطانية؟ ملذا تخبرين أنت و فلافيا هذه المرأة؟»

«لا شيء - لم نفعل شيئاً. ليست المشكلة من هذا النوع. أوه، ليلى، أنا سعيدة لرؤيتك. متى وصلت؟ هل غيرت رأيك؟ هل ستقيم هنا في النهاية؟ هل أنت وحدك؟ أم أن الآخرين معك أيضاً؟ أين...»

«لم أعطيني نصف فرصة. لقلت لك كل شيء. أنا سعيد لأنك سررت لرؤيتي. تصورت أن أحداً لن يحتفي بي بهذا الشكل.»

«حقاً؟ جعلك تتصور هذا؟ فيا من أحد جدير بالاحتفاء مثلك. أنه سحر.. معجزة.. انه شيء رائع!»

وحتى تريه ما تعنيه عواطفه بالنسبة اليها ألقت بذراعيها حول عنقه واحتضنته.

شعلة وبادفا العداق للحظات أحست بسعادة لا توصف، ثم بقطف نحاها جانباً وفي تلك اللحظة علمت فلافيا وأدركت أنه ليس حليفاً تملك به. فقدته منذ زمن طويل - أو هكذا تصورت لحظة استيقاظها.. بل أنه رجل لم تقع عليه عيناها منذ شهرين.

«أنا آسف.. كنت نصف نائمة.. أنا لم أقصد..»

همهمت في خجل وهي تفكر لتبتعد عنه.

«لا داعي للاعتذار فأنا أحب الاستقبال الحار والآن، قولي لي ما الأمر؟ ما هي تلك المأساة اليشعة يا صغيرتي شارلوت؟»

«ليس الأمر مزاحاً انه أمر خطير للغاية. تعال انزي بنفسك.»

وعندما بلغا مشارف الأرض المشرعة، استدارت نحوه، وهي تتوقع أن تراه مدهوشاً كما كانت هي منذ قليل.

ولكن ليلم قال في هدوء:

«يا لله من تغيير عما كان عليه المكان منذ المرة الأخيرة التي كنا فيها سوياً.

«أنت لا تفهم. لم أفعل أنا كل هذا. فأنا لم أحضر منذ ذلك اليوم. لقد فعل ذلك شخص ما. شخص ما يعيش هنا الآن.»

«شخص ما؟ ألا تعرفين من؟»

«لم أرها بعد. أعتقد أنها اثنان.»

«لا تقولي هيا يا شارلوت - بل أنا فقط التي أعيش هنا. تصورت أنك علمت ذلك. فأنا أقيم هنا منذ شهرين وأتوي أن أقيم هنا دائماً.»

حملقت فيه غير مصدقة. وأخيراً استعادت نفسها بالقدر الكافي لتقول في وهن:

«لا يمكنك ذلك.. لا يمكنك ذلك.»

«لماذا؟ أوه! بسبب الأرواح! لم تشكل لي أية مشكلة. وأنا لم أعترض على بقائي هنا لا أتصور أن أحداً آخر سيفعل ذلك.»

أخذت نفساً عميقاً ثم انفجرت قائلة:

«أنا أعترض. لا يمكنك أن تستحوذ عليها. فهذه جزيرتي أنا. سأبيعها. لقد قلت لك ذلك. إن جزيرة سولبلان هي جزيرتي.»

«كان هذا أملاً كاذباً يا شارلوت. أنا أعرف كيف تشعرين بالنسبة الى هذا المكان ولكن يجب أن تشركي أنه ليس بوسعك أن تبيعيه. يمكنني أن أفهم غضبك عندما قلت أن أغراباً تزحوا الى الجزيرة. ولكن أنا لن أحتملك من أجلي.»

«أطلاقاً. أنا لن أحضر الى هنا ثانية. أنت ستغيرها. ستفسدها. أنا أحبها كما هي.»

«أليس هذا هو ما قاله المرة الماضية. كانت لك خطط عظيمة بالنسبة الى هذه الجزيرة.»

«ما كان يجب أن أكشف لك عن خططي. فلولا ذلك ما فكرت في أن تعيش هنا.»

«كلا. ربما ما كنت ستفكر في ذلك. ولكن ما فائدة خطط لا يمكنك تنفيذها يا شارلوت؟ عندما تفكرين في الأمر ستكتشفين أنك لم تخسري شيئاً.»

«من أين لك أن تعلم أنني لن أتوجه في تنفيذ خططي؟»

راودتها فكرة جعلتها ترفع ذقنها في تحد قائلة:

REMA

«لا تكن واثقاً من أن توسعك أن تعلق فكرتك. فليس من حقك أن تضع يدك على الجزيرة هكذا. يجب أن تشتريها. وربما لن يوافق مالكها على بيعها لك».

ألقى عليها بنظرة جعلتها تعتقد للحظة أنها لم تعد كل الأمل بعد. ثم قال بجمود:

«أنا بالفعل أملك سند ملكية الجزيرة. لذا كنت تشكين في هذا، تعالي لأريك إياه».

وقفت شارلوت صرخة لا إرادية.

ثم استدارت وركضت. ولكنه هذه المرة لم يتعقبها. وعندما وصلت إلى الشاطئ، ألقت بنفسها في البحيرة.

٤ - أيام كنت قرأ قائمة بعرزني الزاحة في المكتبة

تأليف: أغاثا كريستي

وقفت شارلوت في اضطراب عاطفي كبير منذ عاد إليام إلى الجزيرة. ولم يكن هناك من تبوح له بحيرتها، وكان عليها أن تحتمله وحدها. ولم يكن بوسعها أن تحتمل سخرية غلافيا عند الدوم بينما تحتوي شعورها الأليم بالضياع.

لم يكن بوسعه قد حرمها فقط من الجزيرة، بل شوه الصورة التي رسمتها عنه بعد أن استولى على مكان لا يبعد غير أميال قليلة عن الشاطئ، وكان يجعلها بكل سند خلقي.

لم تكن لتزور الجزيرة للمرة التالية عادة قبل أن تمضي عدة أسابيع، غير أن أياعد بعد عودتها السريعة المفاجئة من الجزيرة بعشرة أيام، أشار وهو يتناول طعام العشاء قائلاً:

«هكذا أن تأخذي القارب غداً يا شارلوت إذا أردت ذلك».

وسألته:

«حقاً؟ حسناً».

كانت قبل ذلك بوقت غير بعيد تشعر بالبهجة إذا ما سنحت مثل تلك الفرصة... ولكن هذا العرض الآن زاد من شعورها بالاحباط لو كانت قد حسمت على ألا تعتاد عندها أرض الجزيرة ثانية طالما هو هناك.

غير أن الأمر اختلف الآن بعد أن وافتها الفرصة وداخلها فيما بين العشاء والانطلاق شعور بامكان الرجوع عن مشروعها.

REMA

واستسلمت في النهاية لشعور قوي يغريها بأن تذهب لتستطلع نوايا ليام فهي لا تريد أن تراه بل تريد أن تعرف ما ينوي أن يفعله بجزيرتها

وأحست بالألم عندما فكرت أنها ستضطر أن تدخل الجزيرة من طريق القناة التي لم يجرؤ أحد سواها على أن يجتازها لسنوات طويلة. وتذكرت كيف قادت بحصانها من الشاطئ، في أول مرة وكيف صارعت ضد التيارات العنيفة.

وعندما بلغت المنزل لم تجد أي تغييرات واضحة منذ آخر مرة كانت هناك، ولكنها عندما اقتربت من الباب الأمامي وجدته هذه المرة مفتوحاً على مصراعيه، وسمعت صوت مذياع.. وولدت في الردهة تحاول أن تتعرف على مصدر الصوت، وبينما الطلق قط من مقتبل لهوه من غرفة الجلوس يتمسح حولها ويحك جسمه في ساقيها البنيتين العاريتين.

وانحنت لتداعب القط قائلة:

«بيبي..»

كان القط نحيلاً للغاية ولم تكن فروته في حالة طيبة وبدا كأنه حيوان ضال يعاني من نقص التغذية. لكنه لم يكن عصبياً أو نافراً، وربتت عليه بعدها فأنس لها في الحال وتدلى.

وتوقف صوت المذياع وسمعت وقع أقدام وظهر ليام في أعلى السلم فتوقف لحظة وارتفع حاجباه، ثم هبط الى الردهة قائلاً:

«أهلاً وسهلاً.. كيف حالك؟»

واحمر وجهها، وقالت في تيه من الخجل:

«صباح الخير.»

«ما كنت أتوقع أن أراك قبل أسبوع أو أسبوعين.. وظننت أنك لن تستطيعي الحضور إلا مرة في الشهر.»

وعقدت في تيه من القسوة:

«أعتقد أنك لم تكن تنتظر أن تراني بالمرة.»

«هل ذلك لأنك كنت مضطربة في المرة الماضية؟ كان ذلك أمراً طبيعياً، وكنت أعرف أنك ستهدأين وتقتنعين عندما تجدين الوقت لتستعرضي الأمر من جديد»

وقبل أن تفتح فمها لتدحض هذا الكلام أضاف:

«كنت على وشك النزول لأخذ كأساً من الشراب. هلا تشربين؟ كوكاكولا أم فهوة؟»

«لا أريد شيئاً، شكراً.»

«لا؟ حسناً، تشاهب معاً في المطبخ وترى، هيا يا أوليفر»

وأشار الى القط الذي جرى أمامهما على الدور فهاد المطبخ

وقال ليام وهو يفتح علبة الشراب

«من حسن الحظ أنك جئت اليوم لأنك كنت بالأمس في المدينة وتركت لك ملاحظة على الباب.»

ونظرت شارلوت الى أوليفر، وقالت:

«من أين حصلت على هذا القط؟»

«التصق بي أول مرة ذهبت فيها الى المدينة وكان من الواضح أنه ليس ملكاً لأحد وقد أحضرته ليؤنسني وسميته أوليفر لأنه كان هزيلاً أنحف، ولكنه الآن أفضل حالاً. أمازلت مصرة على ألا تشربي شيئاً؟»

«لا.. شكراً.»

«اذن فلنخرج الى الفناء الخلفي.. وهناك بعض الكراسي المريحة في ظل البيت.»

ولاحظت شارلوت أنه قام بإخلاء مساحة كبيرة من التجهيزات والأعشاب التي كانت تنمو وراء المنزل منذ زيارتها السابقة. وكان هناك كرسيان من الألومنيوم، ومنضدة تحت شجرة من أشجار الياسمين الهندي العطرة، وسألته شارلوت بعد أن جلسا:

«هل يعرف أهل القرية أنك تعيش هنا؟ وهل استخدمت أحدهم في إصلاح المنزل؟»

ووضع كأسه على المنضدة، وهز رأسه قائلاً:

«أنني أعتمد على نفسي في الوقت الحاضر، وعندما يصبح المكان جاهزاً للسكن أحتاج الى طاه وبستاني، ولكنني أفضل الاعتماد على نفسي في هذه المرحلة»

وابتسم ثم استطرد يقول:

REMA

«هل تظنين أني لا أستطيع العيش بدون طعام؟ إن إعداد الطعام أو تنظيم المسكن من الأمور التي لا تحتاج الى مهارة كبيرة.»

«ستطيع أن تحتمل لأسابيع قليلة. ولكن الأمر سوف يحتاج الى شهور لتنجز كل شيء بنفسك.»

«أقدر أنه يحتاج الى حوالي ستة شهور شرط أن يتم تركيب المولد الكهربائي في وقت قريب.»

«ولكن حتى لو توافرت الكهرباء لا تستطيع أن تعيش هنا وحدك لعدة شهور. ذلك لا تقدريني حق قدري يا عزيزتي. فمن المعروف عني أنني أنام قرابة كتاب بين حين وآخر ولا تظنين أنني مخروم من الصفاير.»

«إنك لم تتعودي هذا اللون من الحياة.. ويرغم أنها أعجبتك فأنا أشعر بالقلق في بعض الأحيان.»

وعاد ساخراً:

«إنك شابة وطبيعي أن تشعري بالقلق. أما أنا فقد استمتعت بالحياة وذقت أطراباً عديدة هنا.»

وقالت في أسى:

«أعتقد أن بك جنوناً، التي أعرف تماماً ما سوف يحدث، سوف تدخل تعديلات على المنزل وسوف تبيعه إليه حتى تضيق به وتبيعه، وعند ذاك سوف ترحل وتجده خالياً.»

وضحك وقال:

«لا أظن أني سأعاني من الضيق طالما أنك قريبة مني يا شارلوت.»

وهدأت في دهشة قائلة:

«ولكني لن أكون قريبة منك..»

«بلى أنت قريبة.»

وأجرت خجلاً وقالت:

«بدت لأنني نسيت شيئاً هناك.»

«صحيح!»

«بل الأصل أظن ذلك، ولكن ربما أكون فقدته في مكان آخر.»

«ربما هو ذاك؟ ربما ساعدتك في البحث عنه.»

وأخذت تفكر فيما ساعدا أن تكون قد نسيته؟ كتاباً؟ أم نظارة شمسية؟ أم مظلة؟ وعلق قائلاً:

«أخبرني بالناس الذين تحترم وجوههم عندما يكذبون أن يقدروا الصدق. لقد لا تعترفين بأنك حضرت خصيصاً لتنسي الأسئلة التي لم تسأليها في المرة السابقة.»

وصمت لحظة ثم قال:

«أريد أن أعرف، هل اشتريت الجزيرة أم استأجرتها؟»

«لا هذا ولا ذاك.. لأنها كانت ولا تزال ملكي.»

وقالت شارلوت قائلة:

«ملكك.. حقاً؟»

وكانت هناك علبة سيكار على المائدة فتحها وأخذ واحدة منها، وقال:

«ولدت هنا. وعاشت أمي هنا وأنت تعرفين القصة.»

«ولكني لا يمكن أن تكون ابن سوليدان! فاسمك هاملتون..»

«نفر الأقارب الذين تجنبي اسمي، وخيل اليهم أن ذلك قد يمنع المضيعة.»

وأشعل السيكار وبدأ يدخن، وواصل يقول:

«إن أردت البرهان فسأريك شهادة ميلادي.. والد تسجل اسمي فيها: ايلم بادريك سوليدان، ابن سين وروزالين سوليدان من جزيرة مالفور.»

«لا أكاد أصدق.. أقصد أني أصدقك بالفعل.. ولكن الأمر يبدو غريباً للغاية.»

وتابعت بعض الوقت ثم قالت:

«إذاً هذا هو الذي جعلك تبدو غامضاً أول مرة رأيتك. كنت في غرفة الجلوس عندما..»

وتوقفت عن الكلام وهي تعض شفتيها، ولكنه أكمل قائلاً:

«عندما أطلق شون سوليدان النار على أمي، نعم، إن هذه الواقعة صحيحة.»

www.rimas.com
REMA

«ولكن، أن تعيش هنا بعد ما حدث! كيف يمكن لك أن تحتمل ذلك؟»

«بعد أكثر من عشرين سنة كما تعلمين، تتطفىء الذكريات... حتى المؤلم منها. وإذا بدأ علىّ الاكتئاب في اليوم الأول فلأنني كنت شارداً في التفكير فيما إذا كان المكان يستحق الاصلاح؛ وكنت أتوقع أن أجده في حالة سيئة بالطبع. ولكن آثار التصدع تتجسد بشكل متزايد للشخص الذي يكون قد شاهد المبنى وهو في وضع معقول».

وهي، شارلوت، أن إجابته كانت متناقضة فكيف يذكر المبنى في حالته الأولى بينما ينسى الذكرى السيئة لوفاة والديه. وواصل ليان يقول:

«وفي أي حال ليس لي خيار في الموضوع... هذا المكان هو آخر ما بقي لي من الميراث... أنا لست واسع الثراء كما يظنون ولذا فأنني سأضيع في أزمة مالية بعد إصلاح المنزل».

وتجاهلت تعليقه قائلة:

«هل تعني أنك ستصبح مفلساً حقاً أم تعني أنك ستعاني من ضائقة مالية».

«لن أكون في ضائقة مالية فحسب... ولكن معدماً تماماً».

وعلقت شارلوت:

«لو عرفت كيف يكون حال من يعاني المتاعب المالية لما سخرت بهذه الطريقة».

قالت ذلك وهي تتذكر فاقة أمها وفقرها كلما جئت مطالبات مالية تثقل كاهل ميزانية أسرتها المحدودة.

وعلق ليام في مرارة:

«إن الضيق والحزن لا يقيدان شيئاً».

«ولكن إذا أصبحت مفلساً حقاً، فكيف ستعيش؟»

«لن أموت طالما أن هناك سمكاً في البحر وأستطيع أن أزرع البطاطا والبازلاء الهندية... وإذا سادت الأمور فسأحاول أن أعمل».

«ولكن هل سبق لك العمل؟»

«لم يكن ذلك ضرورياً».

«أعتقد أنه من الصعوبة بمكان أن تجد فرصة هنا... سكان الجزيرة أنفسهم لا يجدون فرصاً كافية للعمل».

«أستطيع أن أزعم أنني سأجد فرصتي، فالشيطان يجد سبيلاً لأعوانه».

وابتسم من كرسيه. وقال:

«سأشرب كأساً أخرى... هل تشاركين الكوكاكولا الآن؟»

«بعداً... أشكرك».

ولاحظت وهو يعود من المطبخ بعد دقائق قليلة وقد حل كوبين أنه تغير عما كانت عليه في البداية الأولى... فتلاشى من تلك النظرة المتشفية في التقاء وبدت قرنته واسعة تكشف عنها خصلات كثيفة. كان يبدو أكثر قوة ولم تؤثر فيه آثار الأسابيع الخمسة الأخيرة من العمل الشاقي كما كانت تؤثر فيه ليالي السهر السابقة وأيام البطالة.

وسألته بعد أن جلس:

«هل قلت للآخرين، أنك تنوي أن تعيش هنا؟»

«لا... ولكنني قلت وداعاً... وتركت السفينة في ميناء فورت دي فرانس ولم أصرح لهم بوجهتي».

«ألم يضايق ذلك الأميرة مونتيفالكو؟»

وأجاب ساخراً:

«فقط لأنها اعتادت التخلص من شيوفها عندما تتضايق منهم، وليس حين ما يقررون هم الانصراف عنها».

وأخذت شارلوت تحتسي شراب الكوكا كولا لكنها لم تستطع أن تقاوم فضولها. فسألته:

«ألم تكن بينكما قصة حب؟ ولو إلى حدٍ ما؟»

كان مستلقياً في كرسيه. وأجاب بدون أن يدير رأسه:

«لم يكن بيننا شيء من ذلك. فاذهب يا شارلوت لا يحصل لكل شخص».

REMA

«ألا تريد أن تتزوج ويكون لك أطفال؟»

«لست حريصاً على ذلك بشكل خاص.»

«ولكنك، هكذا... تصبح وحيداً في شيخوختك.»

«عشت وحيداً معظم حياتي... وأفضل أن أعيش كذلك.»

وحاول أن يغير الموضوع قائلاً:

«ما رأيك في النزول الى البحر قبل الغداء؟ هل أحضرت معك شيئاً من الطعام؟ إذا لم تكوني قد فعلت فيوسعني أن أمدك ببعض المأكولات.»

كانت شارلوت قد أحضرت معها طعامها العادي برغم أنها لم تكن تعتزم أن تأكله على الجزيرة ولكن بعد أن أماط ليام اللثام عن شخصيته زال شعورها نحوه بالعداوة وأصبحت تحس بدلاً من ذلك بالتعب والفضول. وقالت: «نعم، أحضرت بعض الطعام، ولكن إذا كنت لم تعمل قبل الآن فكيف تستطيع أن تمارس الطهو وتنجز كل هذا العمل؟»

«ربما لم يسبق لي العمل بالمعنى المتعارف عليه، ولكنني لم أكن كسولاً. فقد مارست أشياء كثيرة.»

«مثل؟»

«مثل التسلق والطيران والتزحلق على الماء وغيرها... لننزل الى الماء.»

كانت شارلوت قد أمضت شطراً كبيراً من حياتها في البحر فاقت الغوص الى مسافة ثلاثين قدماً... وكانت تستطيع البقاء تحت الماء الى ما يقرب من ثمانين ثانية. وأعلنتها أن وجدت ليام على المستوى نفسه لم يكن هناك مكان في البحيرة تصل إليه إلاّ ويلحق بها وكل منهما يرى شبح الآخر يتلألأ على قاع البحر.

ولم تستطع أن تكتم إعجابها ببسالته الفائقة التي لم تكن تتوقعها. وقالت وهي بتناول الطعام:

«أستطيع أن أقرر الآن أن يوسعك أن تجد سبيلك لتكسب رزقك. فبامكانك أن تكون صائد تحار.»

وابتسم ليام، وقال:

«مقصدين أن أبيع التحار الى السياح.»

«لا... لا... أقصد التحار أو الأصداف الصغيرة التي تعتري الأذن. يمكنك أن تصطاد الأصناف النادرة التي يطلبها الهواة.»

«كم تساوي المحارة النادرة اذا أستطعت أن تعثري على واحدة؟»

«عثر أحدهم على محارة نادرة يطلق عليها لقب عبد البحار وبيعت بأربعمائة جنيه... إنها من أثمن أنواع التحار في العالم. وما وجد منها قبل الآن لا يزيد على خمس وعشرين واحدة.»

وبدا عليه الاهتمام. وسأل:

«أين؟ في البحر الكاريبي؟»

«لا! البعد من سلالة ترجع الى جزر الهند الشرقية... ولكن مع ذلك توجد محارات نادرة في هذه البلاد. وحتى تلك التي تعتبر شبه نادرة مثل التحار الذي يطلق عليه اسم الملك فيليبس والتحار الغازوني تقدر بمبالغ طائلة وخاصة إذا كانت سليمة.»

«مثل ثمن هذين التحارة»

«لا أعرفها وهي حيّة... لا أحب أن أتسبب في قتل الحيوانات التي تعيش فيها. ولكنني أحتفظ بالمحارات الفارغة التي أجدها ولديّ كميات كبيرة منها. ما أعنفه أني كنت من يبحثون عن التحار وأنا صبي ولكنني لا أذكر ذلك الآن.»

«بامكانك أن تحصل على كتاب وتدرس كل شيء عن أنواع التحار وستجد فيه ما يشغلك خلال فترة المساء. وربما أصبحت متخصصاً في هذا العلم.»

ونظر إليها في صمت لعدة لحظات ثم قال:

«أتريدين أن تختبريني يا شارلوت؟»

وأجابت:

«إنه مجرد اقتراح... ولذا كنت تعتقد أنه اقتراح سخيف...»

«على الاطلاق. بل أنه لطيف جداً منك أن تبدي هذا الاهتمام... وربما أخذت بنصيحتك، وسأضعها موضع الاعتبار.»

وحان وقت رحيلها فقالت:

REMA

«هل أعود مرة أخرى؟»

«في أي وقت تريدين طالما أن أسرتك تعرف بذلك.

«ولكن الجزيرة ستكون مكاناً مأموناً طالما أنك هناك.

كانا يقفان الى جانب قاربها، وقد بلغ المد حضرها. وحملها الى القارب وهو يقول:

«ربما يعتبر بعض الناس على أنها ليست مكاناً مأموناً بعد. وأعتقد أنني لست الرفيق المناسب لفتاة شابة بريئة.

«لو كنت سيئاً حقاً لا هناك أن يعرف أبواي. وفي أي حال فقد قابلتك أمسي وأحببتك.»

«لا أظن أنها كانت تفعل ذلك لو عرفت أنني قد عانقت ابنتها.. وربما حدثتك أختك عن هذا.»

وقالت شارلوت في صراحة:

«نعم.. وكانت غاضبة.. إنها تكرهك.»

«وهذا يوضح أنها أكثر تعقلاً منك يا طفلتي.»

«كلا.. فقد أحبت فلانا جون. أما أنا فلم أثق به على الاطلاق.»

وأضافت في ثورة:

«لم اني لست طفلة.

وأربما فلاناً.

«حسناً، انك لست طفلة.. ولكن من الأفضل أن يكون لك أصدقاء من سنك.

«مثل جون؟»

«جون مثال سيء للجيل الذي ينتمي إليه. ولكن من المؤكد أن هناك العديد من الشبان ذوي الخلق الطيب.»

«ليس في هذه المنطقة، وفضلاً عن ذلك..»

وترقرقت الدموع على مواصلة الحديث فقالاً:

«وفضلاً عن ذلك..»

كانت تعتزم أن تقول: وفضلاً عن ذلك فإنه لو كان هناك شبان فلن أبي أن

يسمح لنا بالاختلاط بهم. ولكنها بدلاً من ذلك قالت:

«لا شيء. ينبغي أن أنصرف الآن.. وداعاً.»

وفي اليوم التالي لعيد ميلاد شارلوت السابع عشر في نهاية ذلك الشهر.. كسرت ساقها اليمنى.. وفحص الطبيب الكسر بسيطاً في العظام الخارجية من الساق. ولم يمض وقت طويل حتى استطاعت أن تتحرك بصعوبة في البيت وحول الشاطئ. وإذا وضعت ساقها في الجص كان من الصعب عليها أن تركب زوارقها الصغير.

وعندما شفيت ساقها كانت قد مضت فترة تصل إلى عشرة أسابيع منذ آخر مرة زارت فيها الجزيرة.

وفي اليوم التالي لازالة الجص كانت تجلس في مؤخرة القارب تفكر فيما إذا كان ليام قد أحسن شيء من الجزيرة بسبب غيابها الطويل، أو أنه لم يهتم على الاطلاق. وحينما لاح على مرأى البصر قارب يحمل الشاطئ، وعرفته فوراً. انه قارب الصيد الأزرق الذي كان ليام قد حصل عليه كمتابع متجول.

وهي، هنا أنه كان يزر متجهاً نحو الجنوب وكاد قلبها يسقط من اليأس ولكنه حوّل طريقه واتجه نحو الميناء. ولمحت هيئاتها وعادت إليها حيويتها وانتظرته لتمسك بحبال الرسالة. وأحست بأن السماء اكتست بزرقة صافية وأن مياه البحر قد زالت لمعاناً وأصبحت الظلال أكثر خضرة.

وقال ليام عندما أمركها في الميناء:

«أهلاً أيتها الغريبة؛ كيف حالك؟»

«أنا بخير.. وكيف حالك أنت الآن؟»

«على ما يرام؛ ماذا حدث لساقك؟»

«لقد كسرت.. وكانت في الجص».. وهذا هو السبب في أنني لم أزرك.»

«يالك من مسكينة؛ يا لسوء الحظ ومع ذلك فإنها تبدو كأنها لم يمسها الذى.»

وجلس القرفصاء ليظر اليها، وقال:

«أين كان الكسر؟»

ورفعت شارلوت على اليسرى، ورفعت اليمنى لتحدد له بالضبط أين كان

REMA

الكبير.

وتحمس ليام بأصابعه ملامسة ساقها، وقال:

«ولكن كيف حدث ذلك؟»

«كنت أهو مع الأولاد وسقطت عن سطح القطيع»

وعلق قائلاً:

«كبرت على هذه الألعاب والشقاوة التي تخص الصبيان»

«نعم.. فعمري سبعة عشر عاماً الآن»

ورفعت قدميها على الأرض وتركت يدها على كتفه للحظة أطول، وأحست بأن كتفه قوية كالصخر ويبدو يقول:

«حقاً بلغت السابعة عشرة؟ كنت أحسبُ بأن هناك شيئاً تفوز فيه. أما كان ينبغي أن تلبسي فيعماً»

«فيعمّ.. لماذا؟»

«لتسعي الجاهير الوجه من الظهور.. فالنساء عندما يكبرن لا يستطعن أن يعلن مظهرهن كما تفعل فتيات السادسة عشرة»

وصاحت تقول:

«أوه، إنك متوحش»

واستأنف الحديث قائلاً:

«كنت أظن أنك لم تحضري لأن أبويك لم يسمحا لك بذلك»

«هل انتظرتني؟»

«كانت هناك لحظات أحسست فيها إنني بحاجة الى أن أجد شخصاً أتحدث إليه.. حتى لو كان هذا الشخص أنت»

«أشكرك كثيراً.. وإذاً ظن أنكر في زيارتك مرة أخرى»

«أفهم من هذا أن أبويك وافقا على أن تزوريني»

«لم أطلب إليهما ذلك بعد.. فلم يكن لهذا الطلب معنى حتى تتحسن رجلي. وإذن سأطلب إليهما أنا بنفسي»

وبدأ يسير قرب الينابيع فأمسكت بذراعه تقول:

«هناك شيء لا تفهمه»

«هل تعنين أن أبيك من المعارضين للصداقة بينك وبين الآخرين؟»

«نعم الى حد ما.. وكيف عرفت ذلك؟»

بأحست به إحساساً داخلياً.

«قد لا يكون لطيفاً تجاهك ولكنه لا يقصد أن يكون فظاً، والأمر لا يزيد عن كونه متقلباً بعض الشيء»

«هكذا يكون الأذكياء أحياناً»

ورمت على يدها بطستها

«لا تقلقي! فلن أسبب له أي قلق»

كانت لهفتي ألا يصمد ليام للعداوة التي يظهرها أبوها لأي شخص غريب إذا ما أحسّ نحوه بشيء من عدم التقبل.

وظهر رالفس مارتن في الشرفة الكشوفة وهو يسيران فيها المنزل فأحست بشيء من الذعر.. وبدأ يهبط الدرج ليقابلهما... وكانت شارلوت تأمل في أن تكون أمها موجودة في تلك اللحظة حين يتقابل الرجلان، وأخذ أبوها يتفحص ليام.. بنظرة غير ودية ولكن ليام صمد ولم يبد عليه أي اضطراب، وقال:

«أأنت السيد مارتن؟ أنا هاملتون الذي يسكن جزيرة ماغور كنت أقرأ كتابك عن تاريخ جزر الأميال الصغرى والذي بعض الوثائق التي كنت أعتزم تقديمها الى متحف فكتوريا الملكي، ولكن خطر لي أنك ربما تجد فيها ما يهمك، وقد تستحق أن يشار اليها في الطبعة القادمة من مؤلفاتك»

«هاملتون! جزيرة ماغور! المعروفة باسم جزيرة سوليفان على ما أعتقد! والتي تقع على الساحل على مسافة من هنا. كنت أظن أنه لا يعيشها أحد»

«إن وقت قريب مضى، ولكنها لم تعد كذلك الآن. فأنا أقطن هناك وان كنت لا أريد أن أذيع النبأ، وأرى أن ما يشاع عن الجزيرة من أنباء مخيفة يعتبر في الوقت الحاضر ميزة من وجهة نظري، لأنني أريد ألا يقطع أحد عليّ عزلتي»

ونظر الى شارلوت، وواصل حديثه قائلاً:

«ومع ذلك فليس لدي اعتراض في أن أحضر اليك الى الجزيرة من حين الى حين

REMA

فقد فهمت أنها تهتم بدرجة واضحة في مجال دراستي الرخويات البحرية.

وأمست شارلوت بقية من الفاجأة عندما نسب اليها الاهتمام بمجال دراسته وكان ذلك أثر السحر على أبيها.. وبدلاً من أن يسأله كيف ومتى بدأت الصداقة بينهما، ولذا لم تحدثه ابنته بذلك دعاه الى الدخول وطلب الى شارلوت أن تحضر له بعض الشراب، وكانت هذه أول مرة ترى فيها شارلوت أبيها على هذه الدرجة من التكرم.

وعادت أمها ومعها غلافيا من مهمة كانتا تقومان بها في القرية، وقال قبل أن يقدم راقاس زوجته اليه:

«غلافيا أنا وزوجتك من قبل، فقد حضرت الى هنا مرة ولكنك لم تكن موجوداً. كيف حالك يا سيدة مارتن؟»

وابتسمت في ثقة من الشكلات وقالت:

«كان ذلك يوم أن ذهبت الى المستشفى يا راقاس، وقد تمنيت أن أعتذر عن كل ما قيل عن ذلك الرقص كان ضجيجاً لا ضرورة له، انا بصحة كاملة، ما رأيك في أن نتناول الطعام الآن معنا يا هاملتون؟»

لم يدرك ليام أن الآخرين حوله كانوا قد صعقوا من الفاجأة لتلك الغزارة الثارة التي أبداها الأب لمهاجمه، وأجاب بأقبل الدعوة بكل سرور شرط ألا يسبب هذا إزعاجاً لبرنامج الطبخ.

وهللت هيلين:

«ليس هناك أي إزعاج».

وقال زوجها:

«هيا بنا الى المكتبة لنتحدث في حرية هناك».

ومضى الرجلان، وأسرعت هيلين الى المطبخ لتعطي بعض التعليمات الى غيوليت، ثم عادت وقالت:

«غلافيا، انهضي وأحضري بعض الأزهار للمائدة» شارلوت أسرعي بمعاونة غيوليت، من حسن الحظ أن العشاء سيتأخر حتى الثامنة. وكنت أتمنى أن يكون هناك متسع من الوقت لتصنع شيئاً خاصاً.

وطمأنتها شارلوت

«لا تنشغلي يا حبيبتي، فان ليام لا يكترث بما يقدم له على الطعام».

كانت شارلوت على صواب، فقد شكر ليام مضيفته قبل أن ينصرف بحرارة قائلاً:

«كانت هذه أفضل وجبة قدمت لي لأسابيع طويلة مضت يا سيدة مارتن، قد تعلمين أنني أعيش عيشة على جانب كبير من البساطة والقسوة في الوقت الحاضر، ولكنني التمس أن أرد كرمك عندما تنتظم حياتي».

والتفت الى زوجها قائلاً:

«قد لا أجد الفرصة للحضور لفترة معينة وفي الوقت نفسه لا أود أن أرسل اليك هذه الوثائق بطريق البريد فقد يكون من المناسب أن يحضر أولادك لاطلاعهم».

وأجاب راقاس:

«بالتأكيد... بالتأكيد... وليكن ذلك غداً إذا كان يناسبك».

«حسناً... ولكن قد يكون من الأفضل أن يعهد الى شارلوت بذلك، فالطريق خلال الغابة وعبر بعض التلي، وقد به خبرة من قبل».

كانت شارلوت تظن أن ليام سيكون في انتظارها عندما تصل الى جزيرة سولايفان في صباح اليوم التالي، ولكنه لم يكن هناك، وعلى ذلك اتجهت الى منزله وصارت تنادي:

«هيو... هيو... أنا هنا».

ولكن أحداً لم يجب... ولم تلبث لحظات حتى هبط القط مسرعاً عبر الدرج وأخذت شارلوت تخاطب أسئل ذاهبة قائلة:

«أهلاً... يا أوليفر... أين سيدك؟»

ونادت ولكنها لم تحظ بإجابة للمرة الثانية... واجتازت المطبخ الى الباب الخلفي ووضعت يديها حول فمها وصرخت صارخة نداء ولكنها لم تسمع إجابة من خلال الأشجار، كانت الجزيرة ساكنة كما عهدتها عندما كانت تأتي وحدها الى هناك، فما عدا صوت أنفاس أوليفر... ونظرت الى القط نظرة «ليس معقولاً أنه ما زال في الفراش».

REMA

وقررت أن تصعد الى الطابق العلوي لترى اذا ما كان قد استغرق في النوم. لم تكن غرفة النوم مغلقة بالمفتاح. وقفت على الباب وانتظرت بعض الوقت ثم فتحت الباب. كان الفراش يدل على أنه قد أمضى ليلة قلقة ولكنه لم يكن هناك الآن.

وفكرت في أن ليام لابد أن يكون موجوداً في مكان قريب. فالفراش والصندوق والمقاتب والمصباح على الأرض. كانت الأشياء الوحيدة الموجودة في غرفة النوم وكانت الغرفة تعكس مظهر حجرة خالية في بيت مهجور لابد أن أعصاب ليام من حديد أو أنه لا أعصاب له بالمرة. أيكون باستطاعته أن يواصل العيش هنا بدون أن تؤثر فيه الوحدة أو القلق؟

وأحست بالقشعريرة والخيبة بعدما بحثت في سائر الغرف وفي جزء كبير من الجزيرة بلا جدوى. هل تعمد أن يختبئ؟ هل أراد شيئاً من النزاع؟ واستبعدت الفكرة. أيمكن أن تكون وقعت له حادثة كالسقوط من فوق شجرة أو جرح جرحاً بليغاً وهو يقوم بإزالة الشجيرات والأعشاب؟

وأحست بذعر حقيقي. وأخذت تصدر بأسرع ما تستطيع بدون الكشرات بالفروج والحدوش الناتجة عن اختراق تلك الممرّ غير الممهد. وهي تخشى أن تتعلق مخاوفها.

وقادها الممرّ الى الشاطيء الثاني للجزيرة. لم تكن شارلوت قد جرحت حتى أن تزوره مرة ثانية بعد الاستكشاف الأول الذي قامت به للجزيرة بسبب الشجيرات الكثيفة والأعشاب التي كانت تجعل الوصول إليه صعباً. كان من الممكن الوصول إلى المكان عن طريق البحر ولكنها كانت تخشى أن يلحظ قاربها بعض القنّاصين على الرصيف في قرية الصيد على الجانب الآخر من القناة لو سلكت هذا الطريق.

وأخذت تهرول على الطريق المخاتري الضيق وهي تتوقع عند كل انعطاف أن تصل الى نهاية الممرّ ولكنه أدى في النهاية الى الشاطيء الصخري. وهناك كان ليام يرقد ممدداً بقامته الكاملة على الرمال.

وأحست بالذعر عندما رأته في وضع الانبطاح. كان عارياً فيما عدا منشفة تغطيه

بخصره وكان يرقد على بطنه ورقد أسند رأسه على أحد ذراعيه.

وانحنت فوقه وهي تلهث متململ في مكانه. لم يكن فاقد الوعي وإنما كان فقط مستغرقاً في نوم عميق. وركعت على ركبتيها فتقلص الظهر الى وجهه فاستدار جانباً بحيث ظهرت إحدى وجنتيه ومحيّ مغطاة من المكان الذي ركعت فيه.

كان من الواضح أنه لم يحلق ذقنه منذ زيارته ليتهم في اليوم السابق وكان ذلك من الخارج خشناً كما رأته لأول مرة، وعيناه طويلة وكثيفة كرموش غلاديا. وأنفه مقوساً بارزاً بنم عن القوة والرجولة. ورجت بشرته فاتحة كبشرة قبرليت ولكنها غير مكتنزة بالدهن مثلها

ربست شارلوت بأصابعها عظام كتفه في لطف تقول:

«ليهض يا ليام»

وبدأ يتحرك في بطء، وهو يتمتم مستغرباً بدون أن يفتح عينيه.

«مين؟»

وكررت

«ليام! استيقظ»

كانت يدها لا تزال على كتفه، على استعداد لتوقظه بطريقة أكثر قوة.

وكان مستغرقاً في النوم، وهشت عندما استدار فجأة على ظهره وجعل يده تتسلل الى ذراعها وتجذبها نحوه قائلاً:

«كم الوقت الآن؟»

وأحست بشيء من الاضطراب جعلها تعجز عن أن تجيب على الفور، ولم يكن يرسمها أن تقلص نفسها لتفرد قامتها. كانت تتوقع أن يفتح عينيه، ولكنه أبقاهما مغلقتين لأنه كان يستطيع من خلال الوهج الساطع على جفونه أن يعين أنه يرقد ووجهه تجاه الشمس ويخشى أن يهيجه الضوء. ولقد وضع ذراعه الأخرى أيضاً خصرها قبل أن تتمكن من الكلام.

وخرج من شارلوت صوت بين النهيات والصرير وانتصب ليام عينيه وتكور جسمه كأنما أصابته طعنة رمح وفي حركة سريعة خفيفة انتصب جالساً

REMA

يقول:

«ما الذي تفعلينه»

«لم أفعل شيئاً... على العكس... أنت الذي فعل... كنت أرتطلعه»

«حسناً... إذا أردت أن توقظيني فعليك أن تركليني بقدميك»

«لقد مسست شعرك... ولكنك استمررت فجأة وضحكتني... لا بد أنك كنت تحلم...

لا بد أنك كنت آتي ثارات»

ويبدو أن ثارات يحكم السيطرة حوله وهو يقول:

«لا... لقد كنت... نعم... تخيل... لا أستطيع أن أتذكر... التي أسف... لابد أنني سببت لك بعض الانزعاج... أعتذر... كم الساعة الآن»

«حوالي الحادية عشرة، على ما أظن، جئت مبكرة على غير العادة»

«يا للهول هل تأخرت الى هذا الحد؟ اسمعي بعض القهوة بينما أقوم بحلاقة ذقني»

وأخذ يشق طريقه تجاه المنزل أمامها.

وعندما اقترب من المنزل، قال:

«لن أتأخر أكثر من خمس دقائق، وأنا أشرب قهوتي بدون حليب»

وعندما خرج الدرج كان يرتدي قميصاً وبنطلوناً قصيراً وقد ملئت ذقنه، وقال:

«أرجو ألا يضايقك أنا كنت سأحلق ذقني هناك»

وهزت رأسها بالنفي.

ووقف يحلق ذقنه أمام مرآة صغيرة معلقة على مسمار ثبت في الحائط

وشردت بفكرها قليلاً وتذكرت أنها قد عرفت خلسة تلك الأذن مرتين بينما أختها فلافيا وهي في التاسعة عشرة من عمرها لم تعرف سوى قبلة ناعمة على وجنتيها وأحست بأنها بذلك أكثر خبرة وسعادة.

وقطع ثارات يقول في تيه:

«تبدين فاتنة للغاية تقفل على الدار»

وأحست أنه بذلك قد جعلها للمرة الثانية تشعر بأنها ما زالت صغيرة ثم تضج بعد.

وسألته وهي تعد القهوة:

«أعطاك لديك بعض الوثائق التي قد تهم أبي»

«بالطبع... وإلا فلماذا ظننت ذلك إذا لم يكن عندي»

«حسناً كان أسلوبك وأنت تتحدث كخبير في علم دراسة المحار»

«كلا على الاطلاق... قلت فقط التي أدرس الرخويات البحرية وهذا صحيح وأعرف عنها الآن أكثر بكثير مما كنت أعرفه عندما كنت هنا في المرة السابقة»

وقدم لثارات بعض الحليب المتحلط وأخذ يشرب قهوته

وقال ثارات

«لديك أخبار لي؟ أنت يا مي ...»

وأكمل هذا

«تأخر في التعامل مع كل الشاي»

«حسناً ربما تتهمني بالوقاحة ولكنني لم أكن أقصد ذلك، فقط أقصد القول إن أي شخص لا يحب أي شخص غريب ولم أكن أعتقد أنك ستحفظ على القاعدة لأبد أنت وهو على النقيض. فطبيان متناقضان»

«بالنسبة الى الرض الذي أشارت اليه أمك والذي قال أبوك أنه شيء تافه... هذا كانت أغراضه»

وسردت ثارات ما سبق أن أخبرها به أخوها وما تعهدته بقضائها ثم قالت:

«ولم تسأل»

«لأني أحسست أن أياً يعاني من حالة قلق ومن الضروري أن يهتم بوضعه الصحي وأرى أن تتعود بأن يضع نفسه تحت الرعاية الطبية»

«انه عنيد للغاية، عارفت أمي ذلك، ولكنه لا يقنع، لا أريد أن أتحدث عن أبي هكذا... فانا أحبه كثيراً وكلنا نحبه»

وشرب ثارات فنجانه دون أن يترك فيه بقية ثم قال:

«سيبت أن أحضر لك الأوراق ... سأصعد لأحضرها الآن»

وعندما رجع قال:

«لدي ارتباط بالذهاب الى المدينة اليوم يا ثارلوت ويؤسفني أنني لا أستطيع

REMA

أن أدعوك لتناول الطعام».

كانت شارلوت تتوقع أن تقضي اليوم كله على الجزيرة ولم تستطع أن تخفي إحساسها بالاحباط.

وأطعاها المظروف الكبير الضخم المحفوظ في حقيبة من البلاستيك وسارا معاً الى الجيرة. وقال لها عند حافة الماء:

«تعالي كلما استطعت ذلك. فأنا لا أخرج كثيراً ومرحباً بك دائماً».

وابتسمت وهي تقول:

«حسناً... أشكرك... الى اللقاء يا ايدان».

وهذه المرة لم يحملها الى زورقها واكتفى بأن قال:

«وداعاً».

وأخذ يتمرض في المستنقع، واعتدل قاربه وقال:

«أنت أولاً...»

وكان يعني بذلك أنها ينبغي أن تسبقه بقاربها عبر القناة.

وأحست شارلوت احساساً لا يكذب أن قصة ارتباطه بالذهاب الى المدينة لم تكن إلا كذبة يبغي اتخاذها للتخلص منها... وأنه ربما قام برحلة قصيرة في القرية ثم عاد الى الجزيرة. كانت في حيرة بسبب تلك المناورة وهي تعبر المنطقة المعروفة باسم أوكماتر بريدج لتقترب من الميناء فلم تلحظ شبحاً يخرج مسرعاً من بيت مارتن ويهرول الى الشاطىء. لبثابتها كان الشبح فيوليت تقول في صوت غريب أجش:

«أسرعي يا حبيبتي. أسرعي».

واكتشفت شارلوت أن فيوليت كانت تبكي وتزعد في تأثر بالغ. وصاحت شارلوت:

«ما الخبر؟ ماذا حدث؟»

وساعدت شارلوت لتصعد الى الميناء ثم أمسكتها بين ذراعيها وقالت في صوت غالبه الحزن:

«انه أبوك يا طفلتي... سادت حالة بتوجة كبيرة. وتقلته سيارة الاسعاف الى

المستشفى... وذهبت أمك معه ثم أخذت فيلاليا الأولاد في سيارة تاكسي. وهناك تاكسي آخر في انتظارك يا عزيزتي... ليس أمامنا وقت... سأذهب معك».

مات رالفي مارتن قبل الغروب بدون أن يستعيد وعيه بعدما أصيب بالنوبة القلبية الثانية التي كانت أكثر خطورة من الأولى ودفن ظهر اليوم التالي. وعادت أسرته التي فاجأتها الصدمة الى البيت.

ظلت هيلين مارتن لأيام عديدة تبدو كأنها لم تتأثر لوفاة زوجها. كانت تؤاسي الأطفال وفيوليت وتقوم بأعبائها العادية أو تجلس على الشرفة تحدق نحو البحر في هدوء غير طبيعي بعينين لا تدمعان.

وفي إحدى الليالي أيقظ كيث شارلوت باكياً يقول:

«ماما تبكي! ماذا نفعل؟»

وأيقظت شارلوت فلاليا. وذهب الثلاثة الى غرفة أمهم. لكن الباب كان مغلقاً ولم تسمح لهم بالدخول ووقفوا لفترة طويلة أمام الباب يستمعون بلا حول ولا قوة الى نحيبها المكتوم وأخيراً ذهبوا الى الفراش. وأخذت شارلوت تعانق كيث وتطمئنه حتى نام بين ذراعيها.

كان وجه هيلين في الصباح التالي يبدو وقد أنهكه الحزن. لكنها اغتسلت من النظرة الشاردة في عينيها. وأحست شارلوت بأن تلك النظرة كانت أكثر اللاماً من النحيب العنيف طوال الليل.

وذهبت هيلين الى غرفة مكتب زوجها بعد الانتظار ومكثت هناك تفحص أوراقه حتى وقت الغداء.

وبعد الوفاة بحوالي أسبوعين. وكانت قد أرسلت الأولاد الى المدينة بقائمة الطلبات أخبرت ابنتيها أنها تريد أن تناقش المستقبل معهما وبدأت تقول:

«أرى أنه من اللازم أن ننظر الى المستقبل وان كنا لا نحس بالرغبة في ذلك... لا أريد أن يحمل الأولاد الغم ولكنكما أنتما الاثنتين أصبحتا كبيرتين الآن بدرجة تؤهلكما لمواجهة الحقائق أيّاً كانت... بل أرى أنه من الواجب أن تشاركا بالرأي في اتخاذ القرارات الهامة. ان ما لدينا من النقود لا يكفينا إلاّ لأشهر قليلة. والمال الوحيد الثابت الذي نملكه هو هذا البيت وهو لا يساوي كثيراً في الوقت الحاضر

REMA

ولكن قيمته قد ترتفع كثيراً إذا ما قام شخص باستثمار الخليج، وأعتقد أن ذلك سيحدث عاجلاً أو آجلاً لأنه من أجمل الشاطئ في الجزيرة. لكننا لا نستطيع أن نعيش على ذلك الأمل فليس لدينا الوقت... ولابد سيكون علينا أن نميل أعلى مبلغ يقدم لنا نعتاً له ونعود الى انكلترا، ولدينا مبلغ قليل في البنك... أما نحن البيت فينبغي أن يغطي تكاليف رحلة العودة على الدرجة سفن للوزير.

هيلدا: انكلترا! لم لا نذهب الى الولايات المتحدة؟»

قالت ذلك فلافيا... وكانت ترى أن نيويورك هي المكان الذي تطمح به.

وأحست شارلوت بالروع اذ رأت أمها تفكر في العودة الى الوطن فقالت: «هل هذا ضروري يا أمي؟ لنظر يستقر دائماً في انكلترا. وأعتقد أنها الآن أكثر سوءاً عما كانت عندما هجرتها أنت وأبي.»

كانت شارلوت قد عقدت صداقات مع عدد من سكان الجزيرة الذين عاهر يعلمهم الى انكلترا وبرغم أنهم كانوا يستمتعون بالحياة هناك فان رسائلهم في الرسائل أنفسهم بأنها سوف تتمتع من الحياة هناك.

وعلقت هيلدا في ابتسامة باهتة:

«لنظر لا يستقر هناك دائماً يا حبيبتي... والطقس في بلادنا لطيف وطق كل فانكلترا ليست كاملة بل ليس هناك مكان يتوفر له الكمال، ولكنها أفضل من أماكن عديدة عن أنها وطننا الذي ننتمي إليه.»

وعلقت شارلوت:

«انا أنتمي الى هناك.»

وردت فلافيا:

«لحسن الحظ أنا لا أنتمي إلى هذه الطفلة.»

وعلقت الأم:

«ألا تريان أنكما تتصرفان حول تفسيكما؟ ألم تنسيا الصبيان! أعتقد أن انكلترا هي أفضل مكان لهم.»

كن جميعاً على السرير في غرفة هيلدا ودخلت ليراثيت لتخبرهن أن السيد هاملتون في الخارج ينتظر أن يقابل السيدة مارتن، وقالت هيلدا:

«لابد أنه سمع بخبر الرفاة وأنه جاء للتعزية.»

وقالت فلافيا:

«هل تعتقدين بأنك نائمة؟»

«لا، من الأفضل أن أقابله، ويمكنكما أن تحضرا كذلك.»

وبدا أن ليلهام لم يكن قد سمع الخبر فلم يظهر يظهر من جاء ليهدي التعزية، وألقى عليهن التحية قائلاً:

«طاب وقتكن.»

ثم قال هيلدا:

«جئت أطلب مساعدتك يا سيدة مارتن، هل يرضيكي أن أتحدث اليك حديثاً خاصاً؟ ربما استطعنا أن نتمشى على الشاطئ» لمدة خمس دقائق؟»

«لا بأس إذا كنت تريد ذلك.»

ولمحت فلافيا بعد أن مضت أمها مع ليلهام تقول:

«هاملتون يريد بنا شرا!»

وعلقت شارلوت:

«وكيف أعرف؟»

ورفعت شارلوت نفسها على الدرابزين الذي يحيط بالشرفة ومضت وظهرها يستند الى إحدى الدعامات التي ترفع السقف وقالت:

«أما زلت تكرهينه؟»

«نعم!»

«لماذا؟»

«أنت تعرفين لماذا!»

«أرجوك أن تقولي لماذا!»

وأجابت فلافيا في غضاضة:

«لأنه لا يطيق البقع التي على فرائه.. لا أدق بعده

واحد الصديق الوحيد.

REMA

قد يكون صديقك.. ولكنه ليس صديقي.»

وكان على الفتاتين أن أعيدا رغبتهما في الاستطلاع لأكثر من خمس دقائق.

وظل هاملتون وجيلان يرقصان جيئة وذهاباً حوال نصف الساعة على الشاطئ، مشغولين بحديثهما الخاص. وتوقفا عند نقطة معينة وقفا بنظران لمنزل البنت لعدة دقائق قبل يستأنفا تجوالهما. وتوقفا بعد ذلك لفترة الثانية. وجلس ليام الفرفصاء وبدا كأنه يحدث علامات على الرمل البلل على خط المد والجزر، والى جانبه انحنت السيدة مارتن تتابع ما يقوم به.

بدومعت فلانيا في قلق تسأل:

«مالها بنانشان، وأيا كان موضوع المناقشة أنا لا أفهم لماذا لا يسمح لنا بالمشاركة؟»

وزارت شارلوت من مكانها على المرابزين وهي تقول:

«أنهما عاشقان..»

وعندما اقترب هاملتون وجيلان نظرت شارلوت الى وجه أمها تحاول أن تستطلع ما يساعدها على استكشاف موضوع المحادثة الغريبة بينهما.

وقالت جيلان وهي تصعد الى الشرفة:

«فلانا وأبلسا يا ابنتي عمر

وبدا كأنها في شبه مأزق.

وجلست شارلوت وفلانيا الصدقان لجانبها، واستند ليام الى المرابزين وأشعل سيكارا.

وبدأت جيلان تتحدث قائلة:

«يعرف السيد هاملتون بخبر وفاة بابا.. ولقد فكر في أننا قد نصادفنا بعض المصاعب، واقترح أحد الحلول للمشكلات.»

وأضاف هاملتون

«يمكنكني أنا أيضاً.»

ونظرت إليه جيلان تقول:

«هل أنت متأكد تماماً من أن..»

وقاطعتها فلانيا:

«أرجوك أن تتجهي الى الموضوع مباشرة يا ماما.»

وبادر ليام الى إشباع فضولها قائلاً:

«باختصار.. طلبت الى أمكما أن تحضرا جميعاً لتمضيتوا معي في جزيرة سولبلان.»

وأردف:

«لا..»

وأردف.. تعود.

أجابت الفتاتان بالدرجة نفسها من القوة ولكن التناقض بين ردة فعلهما كان واسعاً للغاية فقد أحست فلانيا بالرعب بينما عبرت شارلوت عن الترحيب الكامل.

وسأل ليام بنبرة يغلبها المزاح:

«ولم لا يا آنسة مارتن؟»

«لأنني لا أريد أن أمضي سجينة في جزيرتك، أنا أشعر بالرعب لأننا سنعزل عن كل شيء. أريد أن أعيش كما يعيش الآخرون.»

وصاحت جيلان توبخها

فلانيا:

«

وأصرت فلانيا على مواصلة الكلام قائلة:

«أريد أن أحصل على عمل.. أريد أن أحتمد على نفسي.»

وعلق ليام بجفاف:

«باستطاعتي.. ولكن ذلك سيكون من الصعوبة بمكان إذا لم تحصلي على مؤهلات. لذا لا تدعين أمك تشرح فكرتي بالكامل قبل أن تتخلي قراراً.»

وعلقت شارلوت تقول:

«أعتقد أنها مدهشة.»

وحذرها ليام قائلاً:

«قد تغيرين رأيك إذا عرفت قدراً أكبر من التفاصيل.»

REMA

٩ ـ الشيطان ليست سوداء جداً كما تبدو

توماس لوري، صاحب مزارع الأمريكي.

قالت هيلين:

«أرجو أن تصدقا أنه لكم كبير من السيد هاملتون أن يشغل نفسه بمشكلاتنا، وينبغي أن يكون القرار في صالح الأغلبية».

وقالت شارلوت:

«أنا أسفة».

وأحنت فلافيا على عنادها بالصمت.

ووجه إليام الكلام إلى فلافي:

«موارد القالية ليست في حالة طيبة الآن، واليت الذي أسكنه بني ليكون قصراً لأسرة غنية لديها خدم وحشم... وهو كبير على في أحوالي الراهنة، وأعتزم تحويله إلى فندق».

وأحس أن شارلوت قد ذعرت، فنظر إليها وقال:

«إذا فكرت جيداً ستجدين أنه مشروع أفضل من مشروع صيد التحلب».

وسكت برهة، ثم قال:

«أعرض على غط غريب من الحياة يحملكم بحاجة إلى فترة الاقتباط الأعلى قبل أن تتخذوا قراركم بشأن المستقبل. وإذا دعوتكم للعيشوا معي أولاً لمدة ستة شهور».

ونظر إلى هيلين واستطرد قائلاً:

«ربما كنتم تتخيلون أن نمط حياتكم الحالي يمكن أن يستمر لسنين طويلة، ولم تفكروا في أي نوع من التغيير».

وأومأت ثم طأطأت رأسها وواصل يقول:

«أنا لا أستطيع دفع الأجور الباهظة التي قد تلتمع السكان المحليين بأن يتخلوا عن مخاوفهم، ولكن بعد أن تعيشوا على الجزيرة فترة معينة سوف يدركون أن مخاوفهم وهمية، ويقبلون العمل بالأجور العادية، وسوف تعاونونني في تنظيم النزل وأن يتطلب ذلك قدراً كبيراً من المهارة، فأغلبه العمل يدوي، وسيعمة أشخاص أفضل من شخص واحد. لهذا نكون ثنائية إذا أبلت شيولت الذهاب معنا».

واعترضت فلافيا:

«ذلك تريد أن تلقنا من القدر الذي فوق النار إلى النار تالها. لقد ملتنا الحياة هنا... وهيلنا كنتم مسخرين لن يكون أفضل حالاً».

وأنبتها هيلين قائلة:

«فلافيا! مالنا جرى لك؟»

«لي أكن أجرؤ فيما قبل على أن أعبر عن رأيي... أنا أكره هذا المكان، فلقد حرمت فيه من الزايا التي تستمتع بها الفتيات الأخريات... هذا ليس عدلاً».

وكررت العبارة الأخيرة وانفجرت باكية، وانطلقت إلى داخل البيت.

واعتذرت هيلين قائلة

«آسفة للغاية يا سيد هاملتون».

وحاولت أن تنهض ولكنه وضع يده على كتفها قائلاً:

«لا تنشغلي بهيا! أنا أقدر مشاعرها، إنها مسكينة. هل تأذنين في أن أذهب لأتكلم معها؟ أين غرفتها؟»

«أخشى أن يسير الأمر من سيء إلى أسوأ».

«أرجوك... دعيني أحاول».

ورغم تشككها قالت:

«غرفة البنات التي الكبيرة... ولكن...»

REMA

وابتسم قائلاً:

«اتركني لي الوضوح.»

وانصرف... ومضت قرابة عشرة دقائق قبل أن يعود وفي عينيه بادرة ضحك، وقال:

«كل شيء على ما يرام، وهي تعني بتدابيرها الآن. لقد حضرت اليوم بطريق البر، والتاكسي ينتظر، ما رأيكم في إلقاء نظرة سريعة على الجزيرة لتستطلعوا صورة الحياة التي تنتظركم إذا قبلتم اقتراحي، وسيكون بإمكانكم العودة قبل الغروب.»

وقالت هيلين:

«فكرة رائعة! ليت فيوليت كانت معنا، سأترك مذكرة للأولاد أخبرهم بمكاننا فقد يعودون قبلنا. هل تبقون يا شارلوت؟»

«أريد أن أذهب معكم.»

كانت فلافيا في غرفة نومها وكان من الصعب أن يظنّ إنسان أن هذه هي فلافيا التي كانت تتهيأ بالكاد. كانت روحها المعنوية قد ارتفعت بشكل واضح، وسألتها شارلوت:

«معقا حدث؟ ماذا قال لك؟»

وأجابت فلافيا:

«لقد اعتذر.»

«عن أي شيء؟»

«عن كل شيء في تلك الليلة... وعن إبعادي عن الخلل بتلك الطريقة.»

وترددت بعض الشيء ثم قالت:

«وقال إن في عينيّ جيلدين، وأني عندما أتعلم أصول الماكياج وانتقاء الملابس سأصبح شيئاً آخر... انه ليس كريهاً كما ظننت.»

ولم تعلق شارلوت بشيء.

وأثناء الرحلة الى القرية المواجهة للجزيرة جلس ايلام الى جوار سائق التاكسي وجلست شارلوت صامتة بين أمها وأختها اللتين اندمجتا معه في الحديث، وكانت تلحظه وهو يلتفت ليجيب عن أسئلتهما وكانت تسأل نفسها «هل هو مخلص وأمين حقاً؟» وخطر لها أنها لا تعرفه تمام المعرفة.

وركبوا الزورق عن رصيف الميناء حيث تجمع نفر من الفضوليين من أهل القرية، وعندما وصلوا إلى الجزيرة أخذت شارلوت تتجول بعيداً وحدها. وأمضى الآخرون شطراً من الوقت داخل القلاع قبل أن تعود اليهم، وبدا وكما خاطر بأنه سيكون عليها أن تعود على أن يشاركها في الجزيرة آخرون، ولم تكن قادرة بعد على التحكم في مشاعرها الغامضة إزاء ذلك.

وعاد بهم ايلام في قاربه، وقال وهو يعاون السيدة مارلن على النزول الى الشاطئ:

«سأعود يوم الأحد، وأمامكم أربعة أيام لتتوصلوا الى قراره.»

وغمز الأولاد الثلاثة عن حاسهم للفكرة، أما فيوليت فقد عبّرت عن عدم رضاها.

ولم تعر هيلين اهتماماً للمخاطر التي تنبأت فيوليت بأنها ستقع لهم في الجزيرة ولكنها تضايقت لرفضها الذهاب معهم.

وقالت فلافيا:

«سوف تغيّر رأيها بعد أن تستقرّ هناك أسبوعاً أو أسبوعين.»

وعرفت شارلوت السبب الذي جعل فلافيا تتنقل من معارض الى مزيد من خلال حديثها معها في الفراش في تلك الليلة حين قالت:

«وعد ايلام بأن يعلمني كل الأشياء التي لم أبد الفرصة لتعلمها يوماً ما.»

«المسائل الاجتماعية مثل السلوك إذا شئت التعمق في الخارج... وما شابه ذلك وسوف يساعدني في الحصول على عمل.»

لم يكن لدى ايلام شك في الاجابة التي تنتظره عندما جاء في يوم الأحد... كان قد حضر بحراً ووجدهم مجتمعين في الشرفة ينتظرونه، وعندما أخبرته هيلين أنهم يقبلون اقتراحه قال:

«حسناً، والآن لمناقشة التفاصيل.»

وأخرج لفافة من الورق ونشرها على المنضدة قائلاً:

REMA

«هذا رسم يوضح أماكن الاقامة لكل منكم.

والتف أفراد الأسرة حوله ليروا الأسم. وقال:

«أقترح أن تشغل السيدة مارتن والبنتان وكيت الصغير الغرف الأربع في الطابق العلوي. أما روب، وبيتر فيشغلان الغرفة التي كانت مخصصة لغسل الأطباق وسوف أنام على أريكة الغرفة المجاورة المؤدية وأستخدمها كمكتب أيضاً. وتستخدم غرف النوم المتبقية في الطابق الأول للضيوف. هل يناسبكم هذا الاقتراح؟»

وهتفت هيلين:

«بالتأكيد.»

مواصلاً: «أول شيء، أعتقد غداً هو تفكركم الى المدينة لتشتري الطعام، وبعض الأدوات، وعلينا الجهز غرف النوم بكتكم الانتقال وسأرتب سيارة النقل الأثاث الى القرية، ثم تنقلها بالقوارب الى الجزيرة، وبعد ذلك نعرض هذا البيت للبيع. وهل ستحضر شيرليت معكم أيضاً؟»

وهتفت هيلين في أسف:

«لا، ولكن ربما غيرت رأيها فيما بعد.»

وسألته هيلين:

«من كان مالك الجزيرة قبلك، يا سيد هاملتون؟»

«لم أشترها، فهناك صلة قرابة تربطني بالمالك الأول وقد ورثتها عنه.

لم يكن راغباً في الكشف عن طبيعة الصلة بينه وبين المالك الأول الى شخص فيما عدا شارلوت. مما أدخل السرور الى قلبها.

وتناول معهم وجبة العشاء. وبعدها خرج مع هيلين في الزورق ليواصلا حديثها الخاص. وقد دار جزء منه حول تعليم الأولاد. فاتفقا على أنها فكرة ما قررت بعد الجزيرة الشهور الستة الاستمرار في القراءة في إدارة الفندق فسوف يرسل الأولاد الى مدرسة داخلية في بارابادوس.»

وقالت لأبنتها:

«قرر السيد هاملتون أن يدفع لكل منكم أجراً متواضعاً ودفع لكم أجر الشهر

الأول مقدماً فقد تحتاجون الى شراء شيء لحذائه.

وأعترضت شارلوت قائلة:

«ولكننا لا نستطيع أن نأخذ نقوداً منه... فليس لديه منها الكثير.»

وهتفت هيلين:

«انه مضيفنا.»

ثم يكن أحدهم فيما قبل قد إعتاد أن يأخذ نقوداً ليدفعها كما يشاء، وحصلت فلاليا على المبلغ الأكبر، وشارلوت على أقل قليلاً. والأولاد بما فيهم الصغير كيت على مبالغ تتناسب مع أعمارهم.

وأنفقت فلاليا كل نقودها في اليوم التالي. فاشترت فستاناً وزوجاً من الأحذية الأنيقة وبعض الأقراط وبعدين أمر بكيدين الأربعة، وعاد الصبيان أيضاً برزم متنوعة واحتفظ كل منهم ببعض النقود. وعادت شارلوت برزمة كانت ترفض فتحها. وظهر فيما بعد أنها بلوزة مطرزة. وهتفت أمها:

«ولكنها فضفاضة، وكبيرة جداً عليك يا حبيبتي، لماذا لم تعيديها في المحل؟»

وأجابت شارلوت:

«انها هدية الوداع لشيرليت. أظنين أنها ستعجبها؟»

«بالتأكيد. انها تلائم ذوقها.»

وسألها ليام:

«هل هذا كل ما اشتريته؟»

«نعم فقد فكرت في أن أدخر الباقي.»

ونظر الى أمها، وقال:

«كان عليك أن تنسي هذه القصة حكيمة.»

وأمضى أفراد الأسرة بقية الأسبوع في الجزيرة يطلون جدران غرفهم.

وفي اليوم المحدد للانتقال الى الجزيرة تناول أفراد الأسرة إفطارهم قبل الفجر وأحسّوا بالحزن رغم بأكلون وجبتهم الأخيرة في البيت الذي كان مسكناً لهم لسنين عدة يرغم أنهم كانوا على عدة حياة جديدة.

وحضرت الشاحنة بعد الشروق مباشرة لتنقل الدفعة الأولى من الأثاث. وقام

REMA

روب وبيتر بمساعدة ليام والسائق في عملية الشحن، وعند العصر كان البيت قد أصبح خالياً تماماً كما كان عندما حضرت هيلين وابتناها وزوجها ليسكنوه منذ زمن بعيد. وعندما حانت لحظة الرحيل، أخذت فيوليت تبكي وتتشهى لأبيها ان تلمح عيناها عليهم مرة أخرى.

ولم ينس ليام ، برغم ما خاله طيلة اليوم من جهد في نقل الأثاث والأمتعة بطريق البحر من القرية الى الجزيرة، أن يعد لهم وجبة العشاء. وطلب إليهم بعد العشاء مباشرة أن يخلدوا الى الفراش.

وقالت هيلين:

ـ لكن ينبغي أن نغسل الأطباق أولاً.

وعلق ليام قائلاً:

ـ سوف أعنى بها.. ولا بد أن نرتاحوا، فهناك عمل كبير ينتظرنا غداً. طابت ليلتكم!»

كانت شارلوت بعد العشاء بحوالى عشرين دقيقة تقف في النافذة المطلة على الجزيرة وقد سطع عليها ضوء القمر عندما تسلل كيث إلى حجرتها بقول.

ـ لا أريد أن أنام معك.. لا أريد أن أنام وحدي.»

وعانقته وقالت:

ـ سوف تعتاد ذلك يا كيث .. سترى.»

وأخذت أن يكون البيت مسكناً كما قالت فيوليت.

ـ لقد نام ليام هنا لأسابيع عديدة، ونحن في أمان معه.

واكتفى كيث بأن التصق بها

ـ ستنام معي.. ولكن الليلة فقط.

وفي أحد الأيام في فترة ما بعد الظهيرة، وكان قد مضى عليهم أسبوع في الجزيرة، ذهب ليام الى الشاطئ، ولكنه لم يعد كما وعد في الرابعة مساء. وعندما رجع قالت هيلين:

ـ هدأنا نتعشى بدونك.. أرجو ألا تضايق.»

ـ «على الاطلاق.. وقد أحضرت معي شخصاً.. هل لديكم طعام تقدمه لهذا

ـ «هذا فاحص كبير.. من حضر معك؟»

وأشار ليام الى شخص خلفه.

ـ فيوليت!»

وقفز الجميع من أماكنهم ليحيوا بها واقفاً الكابن بالضجيج وبكت هيلين لأول مرة وسألت.

ـ «هل حضرت لتتفحص معنا يا فيوليت؟»

وأومأت فيوليت وقالت:

ـ «قال السيد ليام ان سعادتكم لا تكتملون بدوني.. وأنا كذلك غير سعيدة بدونكم، فانتم بمثابة أسرتي، ولن يسمح السيد ليام بأن يقع سوء لأي منك.

لم يمض شهران حتى تغيرت الجزيرة تماماً، وبرز للمنزل القريبة من جهة البحر، وكانت شارلوت كلما سنحت الفرصة تبحر في القنحة التي لم توسعها براسلة الديناميت، لتحقق من بعد في واجهة القصر الجميلة، وأعجبت التي طليت حديثاً، والحواجز التي تسطع بظلالها الأبيض في ضوء الشمس.

وكانت الفوائد تتلألأ ليلاً بالأضواء التي تستمد الطاقة من المولد الجديد. وكان على كيث أن يدور في البيت ليغلق نوافذ السلك الفضي قبل انغروب لمنع الحشرات الطائرة وغيرها من الدخول. وكان هناك صندوق تلفيق وحلة كهربية وخلاط وكلها تدور بالطاقة من المولد أعجبت بها هيلين وفيوليت كما أعجب الرفاق الأكبر سناً بالواقعة الكهربائية.

ورغم أن ليام كان كثير العودة الى البر فان أحداً من الآخرين لم يزر المدينة حتى حان العيد العشرون لميلاد فلافيا.

واشترت شارلوت القرصة فاشترت بذلة بحر صغيرة واشترت للفلافيا حامل أقلام شفاط دوار ومذهب هدية عيد ميلادها، بينما أهداها ليام مجلداً للشعر وتشارك الأولاد في شراء علبة تربة الأطفار مايكرو. وبعد عشاء عيد الميلاد فتح ليام صندوقاً كبيراً فيه آلة تسجيل وعدد من الأشرطة وقال، موجهاً الآلة للسجلة والأشرطة لها جميعاً.

كانت شارلوت الفترة تحاول أن تخفي شعوراً انتابها بشيء من الكآبة

REMA

والفضل يرجع الى شعورها بالغيرة لا من فلافيا فقط بل من الجميع وحتى من فيوليت ذاتها.

كانت دائماً تحب الغيرة انفعالاً خبيثاً وأحست بالذعر عندما اكتشفت أن تلك بالضبط كانت الحالة التي تعاني منها. لم تكن تقدر من توثق الرابطة بين ليام وأمها وأختها والأولاد ولقد كان يعذبها أن تجد وهي التي عرفته قبلهم جميعاً أن علاقة ليام بها كانت آخذة في التضاؤل فقد بدت الآن وكأنها آخر من ينتمي به من الأسرة.

وهبطت السيدة مارتن الدرج وجلست الى جانب شارلوت وقالت «فلافيا تتعلم الرقص بسرعة، ولكنه ليس الرقص الذي كنا نعرفه. ومع ذلك فرقصة الفالس والرقصات السريعة لها ميراثها».

وعندما توقفت الموسيقى وقف ليام على حافة الدرج يقول:

«هل ترقصين يا هيلين؟»

«كنت... منذ سنوات».

«تعالي لتؤدي عرضاً أمام البنات».

«نسيت الخطوات».

«لغو معقول... أنا واثق أنك لم تنسي».

ورفضت هيلن لاكتفائه، وأهدت أطفالها وهي تدبح خطواته كأنها لم تترك الرقص لأكثر من أسابيع برغم أنها لم ترقص منذ أكثر من عشرين عاماً.

وضحكت وهي تلهث قائلة:

«هلا تعطي شارلوت درساً».

وتردد بعض الشيء، ثم قال لها:

«أتعبين أن تجربي يا شارلوت؟»

وأجابت على الفور:

«لا... شكراً».

كانت شارلوت في أعماقها تتمنى أن تحسن بلدس قراءته عوفاً، وأقحت عليها أمها فهبطت الدرج ببطء وتردد لتشارك في الرقص. وكرر ليام ما سبق أن قاله

لفلافيا:

«انسي كل شيء عن تدريبك واسترخي واستمعي الى الايقاع».

وأمسك بيدها وانتظرت حتى بدأت المعزوفة الثانية وبدأ يهديها إليه ثم يدفعها الى الخلف.

وعندما انتهت الرقصة قالت هيلين:

«أحسنت يا حبيبتي... انكما ترقصان كأن الرقص غريزياً فيكما».

وقالت فلافيا:

«انه دوري الآن... هلا تعلمتي رقصات أمريكا اللاتينية فيا بعد يا ليام؟»

«سأستطيع أن أعطيك فكرة عامة. ولكننا نحتاج الى موسيقى مناسبة. أما الآن فأنا بحاجة الى شرابه».

وكانت شارلوت قد ذهبت الى الفراش قبل أن يعود، وبدا لها في الأيام التالية أنها في كل مرة تلمحه كان يبدو منشغلاً مع الآخرين. كان لديه الوقت لهم جميعاً ماعدا شارلوت... ينحدث إليها على المائدة وكذلك في وجود الآخرين ولا يدخل غرفة ويجدها وحدها هناك إلا وجد العذر للانسحاب.

وفي أحد أيام الأحاد حضر مصور ليلتقط صوراً تنشر في كتيب عن الفندق. كان شاباً يدعى ريكاردو تورتيل من جزر الهند الغربية. وكان يعمل بقية الأسبوع في البنك الذي يحتفظ ليام فيه بأمواله. واكتشف ليام أن ريكاردو كان مصوراً هاوياً موهوباً يأمل أن يتحول الى محترف ذات يوم.

كان ليام قد سبق أن شرح لريكاردو أن هناك إصلاحات أخرى سوف تتم في المبنى قبل أن يستخدم كفندق، وأنه يريد صوراً فوتوغرافية تظل الى كبار الزوار للانطباع الذي سيكون عليه المكان عند الافتتاح بدون مبالغة.

وأمضى ريكاردو اليوم كله في الجزيرة يلتقط صوراً أكثر مما يلزم للكتيب ليبيعها لمكتبات الأفلام ووكالات الاعلان.

كان طعام الغداء في ذلك اليوم يتكون من سرطان البحر الذي قدم على طبق كبير بطريقة فاخرة، وحلته فيوليت وهي تلبس فستانها الأحمر اللامع. وعندما حان وقت الظهيرة دخل ريكاردو وأغلق مصير النوافذ وظل البيت يظلمة

REMA

ذهبت شارلوت الى غرفتها تزجي بقية الاستحمام الصغير، وعندما نزلت الى الطابق الأرضي وجدت ريكاردو وحده في الردهة، وصمتم على أن يلتقط لها بعض الصور وهي تجلس فوق قاعدة التماثيل المطلة على الدرج. كانت تعتبر أنه يضيع الفيلم لأنها لا تستحق تلك الصور، ومع ذلك أطاعت تعليماته، وشردت تفكر في ليام وتمنت أن تكون معها صورة له تنظر اليها في وحدتها.

واكتشفت أنها تحب ليام وتمنت أن صداقته وحدها لم تعد كافية لتعيد إليها السعادة، فهي تريد الآن شيئاً أكثر من الصداقة.. تريد أن يصبح لها عنده مكانة وأهمية كما أصبح له شيء عندها.

وعاد ريكاردو الى الجزيرة في عطلة الأسبوع التالية ليريهم بروفات الصور التي أخذها وصارت الصور إعجاب ليام، قبل أن يبدأ يعرض عدد آخر من الصور التي أخذها لشارلوت والتي كانت قد نسيت كل شيء عنها.

وقال روب يلخص مشاعر الآخرين:

«شارلوت.. انها شارلوت! كنت أظن أن الكاميرا لا تكذب، ولكنها تعمل ذلك تماماً انها ليست كذلك في الواقع على الاطلاق».

وأحست شارلوت بالدهشة نفسها إذ كانت تبدو في الصور أكبر سناً وأكثر رشاقة وجمالاً، ورفعت الغريزة لتنظر الى ليام، كان صامتاً وقال موجهاً الكلام الى ريكاردو:

«لقد التقطت هذه الصور؟»

والتفت ريكاردو الى السيدة مارين قائلاً:

«أعتقد أن يوسعني بيعها.. لم أدخل طبيعة».

«انها صور لطيفة.. لكن من ذا الذي يريد أن يشتريها؟»

وأجاب:

«صور الجميلات تطلب دائماً».

وقاطعه ليام:

«بالتأكيد لا.. كان ينبغي أن تستأذن قبل أن تلتقطها يا ريكاردو تعال الى

المكتب لأسوي المرضوع معك».

ووضع كل النسخ ووضعها في مغلف وترك الغرفة وهتف روب قائلاً:

«لقد خاب الأمل في أن تصبحي فتاة الغلاف يا شارلوت».

وظل والأولاد الآخرين يضحكون في ضجيج حتى جعلتهم هيلين يغادرون المكان.

وسألتها قائلة:

«ماذا لم تقولي ان ريكاردو التقط لك صوراً؟»

وأجابت شارلوت:

«نسيت كل شيء عنها».

وظل الأولاد أيام أو يومين يعتذون الى إغاظة شارلوت التي ظلت تفكر في السبب الذي من أجله أبدى ليام ذلك الاعتراض الواضح.. وكانت تود لو أنها طلبت أن تحتفظ بصورة منها، ولكنها خشيت أن يتهمها بالعجب والخيلاء.

وفي اليوم التوعود الذي كان السجل القرمزي فيه موضوعاً على مكتب الاستقبال ومعداً لتسجيل الضيوف الأربعة الأوائل قالت هيلين وهم يغادرون الفندق:

«ما أسرع ما يمضي الوقت عندما يكون الانسان مشغولاً بالعمل.. كأنا أمضينا أسبوعاً واحداً أو أسبوعين فقط منذ جئنا هنا».

حدث ذلك في أول يوم يصل فيه ضيوف الى الفندق

وبعد ذلك بحوالي أسبوعين كان يوسعها أن تقول:

«لو أن ضيوفنا يستمتعون برؤيتهم كما نعلت أسرتنا هوبتينكر و هايارز فلن تكون أمامنا مشكلات».

وكانت شارلوت سعيدة كالآخرين لأن الأسرتين الامريكيتين استمتعتا بإجازتهما ووعدتا بمدح فندق جزيرة ماتفر لكل الأصدقاء. ومع ذلك فالثلاثة الذين وصلوا الى الفندق بعدهم مباشرة لم يكونوا أبداً رفيقين متلهم بل ستة أشخاص يجتمعون الشراب ويلعبون الورق حتى الساعات الأولى من الصباح، ثم ينامون فلا يستيقظون قبل الظهيرة السرة يتركن آثار أقلام الشفاه وزينة

REMA

العيون على ملاءات الفراش الجديدة. وكل يوم كان هناك على الأقل لفافة سكاكر خالية أو صندوق شوكولاتة أو أوراق أخرى ملقاة على الشاطئ. ليقوم إنسان آخر برفعها.

وقالت فيوليت وهي تبدل الأزهار في آخر يوم للإقامة أولئك الزلاء.

«أحد الله أنهم سيرحلون غداً... وأدعوه ألا نرى منهم ثالثة».

وهزت فيوليت كتفيها وعلقت متفلسفة:

«في رأيي أنهم أفضل من ألا يكون لدينا زلاء بالمرة».

ونظرت فيوليت الى الساعة المثقل فرأت ليام أمام المبنى. وقالت:

«من المؤسف أن السيد ليام ليس أكبر مما هو بعشر سنوات كما أنه ليس أصغر بالقدر نفسه».

«لماذا تقولين ذلك؟»

«لو أنه كان أكبر لكان من الممكن أن يتزوج السيدة مارتن، ولو أنه أصغر كان زوجاً مناسباً للآنسة فلانتين».

قالت ذلك بدون أن ترى الذعر الذي أصاب شارلوت. وبعد لحظة صمت قالت شارلوت بحدة في عرض:

«أعتقد أن الزواج لا يعتمد فقط على السن المناسبة... لا ينبغي أن يكون هناك حب متبادل».

وضحكت فيوليت بينها وبين نفسها، وقالت:

«لن يجد ليام صعوبة في أن يجعل أي سيدة تقع في حبه».

وفكرت شارلوت في كلمة: على يكن هو ها حقاً شيئاً من الغباء؟

وفي أحد الأيام زرت شارلوت في فترة ما بعد الظهيرة أن تستكشف لأول مرة ساحل الجزيرة الرئيسي من الجهة الشمالية... وأرست قاربها وأخذت تسير بخطى صغيرة على حافة خليج صغير حالي، عندما خلق بها شاب طويل القامة ذو شعر أشقر يقاربها في السن. وكان قد وصل على قارب بلون أصفر فاتح من الاتجاه المقابل وأوقفه بالقرب منها وقال:

«مقالن: على الشاطئ، هذا ملكية خاصة؟ أرجو ألا أكون قد اعتديت على أرض

الغير».

وهزت شارلوت رأسها وقالت:

«ليست هناك شواطئ، خاصة على الجزيرة، فالشواطئ ملك للجميع».

«أوه! أنت انكليزية أيضاً، كنت أظنك أمريكية. أنا إيان فريزر. كيف حالك؟»

وابتسم ومد يده إليها

«أنا شارلوت مارتن».

«هل تقيمين هنا في فندق الباه الخضراء؟»

«كلا... فأنا أقيم في فندق جزيرة ماكفر وأعيش هناك».

«حقاً؟ طوال السنة؟ أنت محظوظة».

«وما موطنك أنت؟»

«اسكتلندا... هل تقيمين مع أهلك هنا منذ مدة طويلة.. أم أنكم مهاجرون جدد؟»

«أنا هنا منذ كان عمري أربع سنوات، وأختي الأصغر ولدوا هناك».

وسألها إيان

«كم عمرك الآن؟»

«سبعة عشر عاماً.. وما عمرك أنت؟»

«ثمانية عشر عاماً.. أكملت تعليمي الثانوي في بوليو/تموز الماضي وقررت أن أتجول لمدة عام في الخارج قبل أن ألتحق بالجامعة ولكن أجريت عملية خطيرة لأبي في أغسطس/آب وحتم الأطباء على أن يمضي الى هنا الراحة مدة أسابيع أمي ماتت منذ ثلاث سنوات ولم يشأ أبي أن يمضي إجازته، لذلك جئت معه. وأعتقد أنني محظوظ إذ أتيحت لي هذه الفرصة. والمشكلة أن أبي يأتي الى الفراش مبكراً فالشعر بالفراغ في الأمسيات. ولا أجد شيئاً في الفندق فكلهم لا يقلون عن الأربعين ويصل معظمهم الى الخمسين أو الستين ما متوسط أعمار النزلاء في الفندق الذي تسكنين فيه؟»

«معظمهم في منتصف العمر كذلك».

REMA

وهمس قائلاً:

«ومع ذلك لا ينبغي أن نحزن فالمكان يستهلك طاقة الانسان أثناء النهار... جربت كل شيء كالتزحلق على الماء والسباحة والقنص... وغيرها.

كانت شارلوت قد أمست نحوه بالتقدير منذ رأته. والآن وبعد أن حادثته خمس دقائق أمست بالارتياح اليه كأخ من اخوتها... لم يكن حسن المظهر لكن وجهه كان صبوحاً وشعره أشعث بعض الشيء، ولم يكن متكلفاً... وليس مثل ذلك الشاب الذي دعا فلانا الى الحفلة.

وأمضيا حوالي نصف ساعة يتحادثان. قال إيان:

«ليلة السبت من كل أسبوع يجري في فندق المياه الخضراء حفل راقص وفي كل ليلة تقام رقصات على الموسيقى المسجلة، لكن السبت يعتبر يوماً خاصاً تحضر فيه فرقة حية... هل تحبين أن تحضري هذا الحفل؟»

وقالت في تشكك:

«لا أعرف.»

وعلت وجهه حمرة خجل بادية وقال:

«كان عليّ أن أعرف أن فتاة مثلك لا بد أن تكون مرتبطة لأسابيع مقبلة.»

وكررت وراءه:

«فتاة مثلي؟»

وردد بعض الشيء، ثم قال على عجل:

«لك أجمل فتاة رأيتها.»

كان يتكلم باخلاص وطريقة جعلت شارلوت تعجز عن الكلام لحظة وقالت بعد صمت:

«أحب أن أحضر الحفل يا إيان ولكني سأستأذن أمي.»

ورافق على الفور قائلاً:

«أي بالطبع... هل يبعد عمل إقامتك كثيراً؟ هل يمكن أن أني معك لأقدم نفسي؟»

«انه لا يأخذ وقتاً طويلاً في الزورق! ولكن ما مصير قاربك؟»

«يمكننا أن نربطه فسأحتاج اليه في العودة.»

وأرسيا الزورق على الجزيرة عند الشاطئ الصغير. وكان أول شخص قابلاه هو ايلام. كان يقوم بحفر بؤرة لا تبعد كثيراً عن البئر اكتشفها قبل ذلك بأيام قليلة.

وقال ايلام وهو ينظر بعين الاستفسار الى رفيقها:

«أهلاً... لقد عدت مبكرة.»

ووضحت له قائلة:

«هذا إيان فريزر... إنه هو مع والده يقيمان في فندق المياه الخضراء.»

وقال إيان:

«كيف حالك يا سيدي؟ جئت أستأذن في السماح لشارلوت بأن تحضر الحفل الراقص يوم السبت في الفندق الذي أقيم فيه. وهناك زورق يمكنني أن أستعيره لأسطحيها في الذهاب والأعود بها في الوقت الذي تحددونه.»

وأخذ ايلام يتفحصه، وقال:

«ما أرى مانعاً... ولكن ينبغي أن تستأذن أمها.»

وأومأ إيان برؤية ثم واصل عمله.

وقال إيان وهما يبتعدان السير:

«إذا كان أبوك قد وافق... فلا أعتقد أن أمك تعترض.»

وقاطعته قائلة:

«ايلام ليس أبي! ألا ترى أن سنه لا يسمح بأن يكون كذلك؟»

«آسف... ولكن من يكون إذاً؟»

وتدرجت قصة ولادة أبيها... وكيف حضرت أسرة مارتن إلى الجزيرة.

كانت هيلين تراجع محتوى حجرات المخزن وتكتب قائمة بالأصناف التي يحضرها ايلام في رحلته القليلة الى المدينة. ورحبت هيلين وأبدت موافقتها على ذهاب شارلوت الى الحفل شرط أن يعيدها قبيل منتصف الليل.

وقالت وهي يتبادلون العشاء في تلك الليلة:

«بذكرني إيان بشخص لا أستطيع أن أتذكر من يكون.»

وعلق ايلام:

REMA

«هل لديك ما تلبسينه في هذه المناسبة يا شارلوت؟ انا ذاهب الى المدينة غداً وتستطيعين أن تأتي معي لتشتري ما يلزمك».

وقالت فلافيا:

«وأذهب معكما لأساعدكما على الاختيار».

وهز ايلام رأسه وقال:

«لا.. لا يمكن أن نتركما العمل أيها الاثنتان في غرة الصباح. فعليك أن تلهي بعملك بالاضافة الى عمل شارلوت يا فلافيا».

كانت فلافيا فيما مضى تثور على مثل ذلك التحكم ولكنها الآن تقبلت الأمر ببساطة واكتفت بأن تقول:

«لو كنت مكانك يا شارلوت لذهبت الى المتجر الصغير في شارع الكنيسة. فصاحبته امرأة لطيفة وتقدم خالص النصيحة».

وقالت شارلوت:

«سوف أفعل».

لم تكن فكرة شراء فستان وراء ما أصبت به من إثارة ولكنها اللمعة للتواجد وحدها مع ايلام لساعات عديدة.

ولكأسف لم يكن لها وحدها أثناء الرحلة في الصباح التالي. فقد دعا بعض القرويين المركوب معهما وكان يتحدث إليهم لا إليها. وعندما وصلا الى العاصمة لم يصحبها في جولتها بل اكتفا على أن يتفاهلا أمام المحكمة عند منتصف النهار تماماً. وبقي الى عمله تاركاً إياها ترافقه في يأس حتى اختفى.

ووصلت الى المكان الذي تواعدا عليه قبل الموعد بنصف ساعة. وانطرته على مقعد قليل. ولم تكن مبتهجة كثيراً برغم نجاح مهمتها في شراء ما تريده وارتفعت روحها المعنوية عندما رأته يعبر الميدان وساعة المحكمة تشير الى الثانية عشرة إلا عشرين دقيقة فلربما أقترح أن يتناولا وجبة الغداء في المدينة أو على الأقل مشروباً بارداً يتحسيها قبل رحلة العودة.

وأخذ قلبها ينبض عندما رأته يقترب من المقعد مبتسماً وقد رأى رزمة الطرود معها. ولكن توقعاتها لم تدم طويلاً وكان أول ما قاله:

«لقد جئت مبكراً.. لو تحركنا الآن فسنتصل مع الفندق اتركي لي حمل بعض الطرود عنك» مادا يبله.

وقالت وقد أحست بشيء من الاحباط:

«فستان وبعض الصنادل.. وأشياء أخرى».

«ماذا حدث؟ ألم تبتاعي كل ما كنت تريدينه؟»

ولم تذكر التوظيف وقالت:

«ليس ذلك السبب.. ولكني متعبة وعطشانة».

واشترى واحدة من الآيس كريم وهما في الطريق الى مكان انتظار السيارة، وعندما قدمها اليها قالت بجفاء:

«لا.. أشكرك».

ولم يكن قد سألها قبل أن يشتريها اذا كانت تريدها أم لا.. لكنها لم تكن ثقيلة.. وكانت تحس بالغضب لمعاملتها بتلك الطريقة.

واطلقت بها السيارة في طريق العودة في صمت أحست معه شارلوت بالضجر، وعندما بلغا القرية كان طلقها يخترق بالدموع العيساء، وعندما وصلا الى الجزيرة حارت أن تشكره على اصطحابها إياها فأجاب بطريقة عارضة:

«لا شكر على واجب».

كان من الصعب على شارلوت أن تنام في تلك الليلة وظلت تتقلب في فراشها حتى منتصف الليل. وفي النهاية صباحاً تسللت في هدوء من فراشها وهبطت الدرج. واعدتها الخطة اذا وجدت بعض الضوء يتسرب من أسفل باب المكتب، لم يكن من اليسير أن يحس ايلام يوقع قدميها وهي تهبط الدرج في سكون الى الردهة. وفتح الباب بحذر فتوقعت عيناه عليها وهي في منتصف الطريق بين قاعدة السلم وباب غرفته.

وأصيبت بما يشبه الشلل عندما وقع عليها الضوء فجأة فنظرت بعينين طارفتين لمحاسه. وهو يقول:

«الى أين؟»

«لا أستطيع أن أنام.. وسأخرج لأستنشق في البحر».

REMA

واليه تحوها يقول:

«لا ينبغي أن تصابي بالأرق في مثل هذه السن».

«أنا ... الهر الليلة حار للغاية ..»

لم يكن كما تخيلت بطراً في مدبره ولم يكن قد سكن الى الفراش بعد. كان لا يزال يلبس البنطلون الذي لبسه على مائدة العشاء. وكان عارياً حتى خصره.

وسألها:

«هل اعتدت أن تتجولي في مثل هذه الساعة؟»

وهزت رأسها بالنفي. وبدلاً من أن يطلب إليها العودة الى غرفتها قال:

«لا تستطيعين أن تنسحي وحدك. سأذهب معك. انتظري حتى أجد ملابسي وأحضر مشعلي».

ودخل غرفته وأوصد الباب بدون أن يغلقه تماماً لتتراءى بصيصاً من النور فوجدت نفسها في نوع من الظل الخفيف وكأنها فجأة بداريح الميلي وبالقدرة التي كان مهجوراً فيها. انطفأ مصباح المكتب ولم تستطع للحظات أن تبصر شيئاً.

وتصاعدت أن الضوء الذي كان يدخل من طريق نافذة على الدرج احجب أيضاً وانطفأ مصباح المكتب ولم تستطع للحظات أن تبصر شيئاً. وتصاعدت أن الضوء الذي كان يدخل عن طريق نافذة على الدرج احجب أيضاً بسحابة فظت وجه القمر.

ولما لم تسمع صوتاً يشي، عن وجود أية حركة همست:

«ليام»

ولم تسمع إجابة

وأحست بشيء من القلق وكررت:

«ليام»

وجاءها صوته وقد اقترب منها قائلاً:

«هنا»

«أوه»

ومدت ذراعيها بطريقة غير مقصودة لتعانقه وكادت أن تصطدم به فقد كان

قريباً منها أكثر مما تظن لولا أنه أمسك بذراعيها ليوقفها. وسألها:

«مالذا حدث؟»

«لا شيء... فقط أحسست لدقيقة بشيء من الذعر»

كانت يداها تستندان الى صدره العاري الصلب. وأحست بأنه من الحماقة أن تتوهم أنها تحاط بأشياء غريبة. وعلق قائلاً:

«أرجو ألا يعاودك الشعور بالخوف من الأشباح»

وتشدد عاد صوته القمر الى الرقة من جديد. وأطلقها ليام بعد أن كان متطرفها يبدو وكأنها على وشك العناق.

وأجابت في صوت خفيض وقد كفت أن يسيره الظلام لقدرة أطول:

«لا...»

وفتح الباب الرئيسي بعناية وسار أمامها عبر الحديقة الى الشاطئ. كانت السحابة التي حجبت القمر تتجه بعيداً والسماء تبدو صافية.

وعندما اقترب ليام في الشاطئ وارتدى رداء كانت تتوقع أن يطلب إليها أن تخرج من الماء ولكنه لم يفعل ورأته وهي تخرج من غطسة في قاع البحيرة يتمدد على الرمال يبغي سيكاراً. وجلست الى جواره وانزلت يتشتتها، لكنه لم يبد حراكاً. ثم قال:

«هل تعرفين أن هذه الليلة كانت في وقت ما مليئة بالملاحف البحرية»

وأحست بالبهجة لأن ليام يتحدث إليها بطريقة ودية كما كان يفعل من قبل.

وسألته:

«هل كنت تحب أن تعيش في هذا المكان في ذلك الزمن؟ منذ خمسمائة عام»

«ليس بصفة خاصة... وأنت؟»

«لم يكن يضيرني أن أكون فتاة في شعب الأرواك... فقد كان شعباً سعيداً محباً للسلام. والفكرة في أن أعيش عند ذلك لما كانت أعتبر فتاة لابد أنني كنت سأكون متزوجة ولي طفلان أو ثلاثة أطفال»

وجفلت قليلاً ماء عن وجنتيها وواصلت تقول:

REMA

«لا أتعجب لماذا كان الناس في تلك الأيام يعتبرون أنهم وصلوا الى سن النضج في سن أصغر بكثير مما يحدث الآن».

«لقد أجبت على هذا السؤال من قبل... فحينئذ كانت النساء يولدن ليلدن الأطفال وليس بالأعمال البطولية الخطيرة».

«أما زال ذلك واجب معظم النساء».

ورأته يبتسم قبل أن يجيب:

«نعم... غير أنه فن الآن اختيار أكبر... فهن لا يجبرن على أن يكن صبياً رغماً عنهن، أيضاً فلأنا نعيش لفترات أطول وليس من الضروري أن تبدأ الفتيات في إنجاب الأطفال فور نضجهن ولو كان هذا هو القرن الخامس عشر وكنت أنا من نسل الأرواك لكنت الآن رجلاً هرماً ليس أمامي فرصة كبيرة للحياة لفترة أطول... بل لكنت سعيد الحظ لأنني عشت لفترة أطول مما يحدث عادته».

وبدهى قائلاً:

«هل تحتاجين بحاجة إلى النوم الآن؟»

«ليس كثيراً، إنها ليلة جميلة».

وخلع رداءه وقال:

«اخلعي ملابسك القطنية المبللة واليس هذا بينما أصنع بعض الكاكاو».

كان الرداء المخطط يصل الى ربع فخذي شارلوت وغطته حوفا وتلت أكمامه وربطت حزامه على خصرها.

وبعد أن عصرت ثيابها القطنية ونشرتها في منشلتها وتبعت ليام الى داخل المنزل.

وجدته في المطبخ، كان قد خلع ثيابه المبللة ولبس بنطلوناً وقميصاً، وأخذ منشفة جافة من سلة الملابس وقال:

«لا يمكنك أن تذهبي الى الفراش وشعرك مبتل».

وشرع في دعك رأسها بقوة، ثم قال وهو يلقي بالمنشفة جانباً:

«هكذا أحسن».

وأكمل ليام عمل الكاكاو وأحضر كأسين كبيرين الى المائدة وقال:

«هل تريدين أن تأكلي شيئاً؟»

وهزت رأسها بالنفي وقالت:

«لقد كنت يقظة في هذه الساعة المتأخرة من الليل! ألم تستطع أن تنام أنت أيضاً؟»

وتناول كأسه وقال:

«لا، وفعل هذه إحدى ميزات الحياة في هذا العصر، كان الأرواك يشربون عصير التبهوت ليستغرقوا في النوم. أتعرفين كيف أكتشفوا أن نبات التبهوت يفقد حواسه السامة إذا ما تعرض للغليان؟»

كان لديها الاحساس بأنه أدخل لفظة التبهوت في الحديث لأنه لم يكن يريد أن يناقش معها السبب وراء قلقه وقالت:

«لا أعرف».

وأضافت:

«ولكنه ليس فاكهة للشهية».

وسألته:

«ألا تشعر بالندم الآن يا ليام؟»

«أندم على أي شيء؟»

«على تعريض المنزل الى الدمار... وعلى أنك قسمتنا جميعاً تحت بنادقك».

«ما الذي جعل هذه الفكرة تخطر ببالك؟»

«فكرت إذا كنت تحس بأنك وقعت في مصيدة... فلقد اتخذت القرارات بطريقة متسرعة، ولم يكن لديك الوقت لتسمعني في الأمر... والحياة التي تعيشها الآن تختلف كثيراً عن الحياة التي كنت تعيشها قبل أن تأتي الى هنا».

وتردد قبل أن يجيب:

«ليس لك أن تقلقي علي يا شارلوت... إنا لا أندم على الحاضر إنما أندم على الماضي فقط». وسألته في حيرة:

«ماذا تعني؟»

وهز كتفيه قائلاً:

REMA

«ضيعت كثيراً من الوقت والمال على أشياء لم أكن أريدها حقيقة. والنقود لا تعني الكثير. ولكن الأمر يختلف فيما يخص الوقت. والإنسان قادر على تعويض الخسائر المادية أما الوقت فلا يمكن تعويضه.»

«لقد تكلم كما لو كنت كبيراً في السن.»

«لست كبيراً في السن ولكني كبير على بعض الأعمال التي كان من الممكن أن أعملها منذ عشر سنوات.»

«مثل ماذا؟»

وفي هذه المرة عمد الى تغيير الموضوع بطريقة مباشرة فقال:

«الكاكاو سيبرد.. وسوف أشرب الشمبانيا قبل أن تنامي بقليه الكفاية. الأفضل أن تأخذيه معك الى الطابق العلوي.»

«لا أستطيع، لأنني لم أضأت النور لأدعى ذلك الى إيقاظ الآخرين، وقد يتسبب في الظلام، وفي حال...»

وارتشفت منه رشفة بحذر، وقالت:

«إنه لا يزال ساخناً.. وأحس بالفرح.»

وراحت تبحث في الثلاجة وعندما عادت ومعها بعض بقايا الأرز وبعض قطع السجق وقطعة كبيرة من الجبن وثلاث قطع من الخبز المغطى بالزبد قال لها:

«سبحان الله.. لن تنامي أبداً لقد أكلت هذا الطبق الذي يكفي الى عشر أشخاص.»

وقطعت شريحة من الجبن ووزنتها على قطعة من الخبز المغطى بالزبد وقدمتها إليه قائلة:

«ولم لا؟ خذ شيئاً منها.»

وهز رأسه قائلاً:

«أكلت ما فيه الكفاية في العشاء. ولكنك لم تكوني جائعة عندئذ.»

ونظرت إليه نظرة استغراب، كانت تظن أنه لم يكن يعيرها أي اهتمام أثناء العشاء. فكيف لاحظ نقص شهيتها للطعام؟

وواصل يقول:

«يجدر بي بالفعل أنك لم تكوني تأكلين الفترة. أرجو ألا تكوني تطبقين نظاماً غذائياً قاسياً.»

«لو كان ذلك صحيحاً لما أكلت هذا السجق.»

«هكذا شأن الفتيات اللواتي يتبعن نظاماً قاسياً للأكل، ثم يفقدن قوة إرادتهن بعد قليل ويكثرون من الطعام.»

وحاد دوريها لتغيير مجرى الحديث. فقالت:

«كنت تقول على الشاطئ، إن الناس يحتاجون الى وقت ليتضجروا عاطفياً مما مقدار ذلك الوقت؟»

«المسألة تتوقف...»

«على أي شيء؟»

«على أشياء كثيرة.. الوراثة.. البيئة.. الحالة الزواجية...»

«ولماذا فيعض الناس يتضجر في سن مبكرة نسبياً؟»

«لعلم.. ولكن ليس في مثل سنك.»

«لا أستطيع أن أفهم لماذا لا تسلم بحدوث ذلك في بعض الأحيان؟»

«لأن أغلب حامل هو الحيرة، وحيرتك في الحياة محدودة للغاية.»

«ولكن حيرتك ليست محدودة، ومع ذلك ضيعت عشر سنوات، فما الذي يدل على ذلك؟»

«لا شيء على الاطلاق. لأن كل منا حالة خاصة. لقد أعطيت نصيباً كبيراً من الحيرة في سن مبكرة، وأنت ظللت حبيسة الفترة طويلة. والآن كفي عن الثرثرة والشربي كأسك. ربما لا تحسين بالتعب ولكنني متعب جداً.»

وشربت شارلوت كأس الكاكاو على مضض، وهمست وهي في الردهة:

«أشكرك على الوقت الذي أمضيته معك.»

«همساً.. ولكن أفلعي عن عادة التجوال أثناء الليل.. ليلة سعيدة.»

«ليلة سعيدة.»

وعادت الى غرفتها وهي في حالة نفسية أفضل مما كانت عليه عندما لمست أن الطابق الأرضي.

REMA

كان أوليفر أثناء غيابها قد استقر على وسادتها يستمتع بالفراش الوثير، وتقلقه في لطف الى الخصيرة على الأرض وما كادت تستقر حتى وثب من جديد الى الفراش وكوّر جسمه بارتياح مستقصا الى ظهرها. وظلت بلطة لفترة قصيرة.

وخطر لها وهي تربت على فراء أوليفر أنها ربما بالغت عندما اعتقدت أن ليام كان يعاملها ببرود لأنها كان مشغولاً بمشكلات عمله الجديد.

كان أول شخص رأى شارلوت مساء السبت بعد أن استعدت للخروج شقيقتها غلاتيا، تقابلنا على الدرج وسألتها شارلوت:

«هل يعجبك فستاني؟»

وأخذت غلاتيا تتفحص الفستان الجديد، كان فستاناً طويلاً أبيض، وكانت فتحة الرقبة والأكمام محلاة بشرائط خضراء. وكان الصندل أخضر اللون كما ربطت شعرها بشريط أخضر وضفرته في هيئة ذيل الكرس. واستحسنت زينة خفيفة بلغم الشفاه، ولم تكن قد اشترت شيئاً آخر من مواد التجميل سوى زجاجة عطر فرنسي صغيرة غالية الثمن.

وقالت غلاتيا:

«إنك تبدين جميلة للغاية».

ولكن شارلوت أدركت أن تعبير شقيقتها مصطنع وأنها لم تقدر الفستان التقدير الكافي، ومع ذلك كانت هي مقتنعة من دراستها لمجلات الأزياء أن البساطة هي السر وراء الأناقة وربما كان ما يؤخذ على فستانها هو أنه جعلها تبدو أصغر سناً بل أقرب شبهاً بتلميذات المدارس.

كانت هيلين مارتن في الطبخ تعد الماينونيز الطازج ورفعت بصرها فرأت ابنتها الصغرى وهرعت على الفور من المطافئ قائلة:

«أوه! إنه ساحر يا شارلوت! استديري... أريد أن أرى ظهر الفستان. إن مظهرك جميل يا حبيبتي... انا معجبة بتصفيف شعرك وبالشريط والزينة البسيطة للغاية... شكراً لله».

وضحكت ثم واصلت قائلة:

«كنت أخشى ألا تفي فتاشري فستاناً غير مناسب لسنك، ولكن هذا الفستان

مناسب تماماً، إنه الثوب الذي كنت أختاره لك».

كانت شارلوت بينها وبين نفسها ترى في تعليق أمها شيئاً من الغلاظة فلم تستسغه كما لم تستسغ إطراء غلاتيا الفاتر، وواصلت أمها قائلة:

«ذهبي لوري ليام مظهرك، إنه في المكتب على ما أعتقد».

وغادرت شارلوت المطبخ وأجازت الردهة، كان باب المكتب مغلقاً وترقفت لحظة قبل أن تنقر على الباب لتعرف الرأي الوحيد الذي كانت تهتم عليه.

وسمعت صوته يقول:

«ادخلي!»

كان ليام يجلس الى مكتبه ينسخ خطاباً على الآلة الكاتبة وقال بدون أن يرفع بصره لوري من بالباب:

«سأفرغ بعد لحظة».

وواصل الضرب على الآلة الكاتبة.

وأغلقت شارلوت الباب، وأسندت ظهرها اليه وهي تحاول أن تبدو أكثر هدوءاً، كانت الفترة التي انشغل فيها عنها تقل عن دقيقة أخرّ فيها الرسالة وراجع ماكتبه ورفع الصفحة التي نسخها عن الآلة ولكنها بدت كأنها خمس دقائق، وأخيراً رفع رأسه لينظر اليها.

وأخذ يتفحصها لحظات كما فعلت غلاتيا بدون أن يتكلم ثم زحزح كرسيه الى الخلف ونهض... وفجأة أحست بالشرائة في عينيه جعلت حلقها يتوتر من الاثارة.

وقالت بصوت أبح:

«حسناً... ما رأيك في؟»

كانت تعرف مسبقاً رأيه فقد سبق أن نظر إليها بالطريقة نفسها وبعد ذلك بلمحات كانت بين ذراعيه وراح يمطرها كانت المتضدة بينه وبينها في هذه المرة ولم يستطع أن يمد ذراعيه ليجذبها إليه كما أنهما لم يكونا وحيدين في المنزل، وقبل أن يدور حول المتضدة كان هناك شخص يدق على الباب ولكنه لم ينتظر حتى يسمح له بالدخول على الفور. كان ذلك الشخص بيتر الذي قال:

REMA

«يريد السيد لانجلي مظروفين من مظاريف البريد الجوي، ولا يوجد منها شيء في الخارج. هل لديك شيء منها يا إيلام؟»

فأجاب فالمد:

ونظر بيتر إلى شارلوت وقال:

«عادة أقول أنك في أبهى زينة لتقابل صديقك ومظهرك ليس سيئاً في أي حال».

واقترب منها وأخذ يتشمم، وقال:

«وضعت عطراً نفاذاً شممته قبل أن تفتحي الباب».

ولم تعلق شارلوت بشيء.. ولكنها كانت تود أن تخنقه.. وعندما أعطاه إيلام حزمة المظاريف، انصرف، فسألت إيلام قائلة:

«هل تعتقد أن العطر الذي وضعته أكثر من اللازم؟»

وأجاب:

«لا يزال بيتر صغيراً لا يدرك مغزى ذلك.. ولكن إيلين سوف يقدره كل التقدير».

وسقط قلبها إذ اختفت البهجة التي كانت تغمر عينيه قبل أن يقطع بيتر عليهما تلك الخلوة.. وبرغم أنهما كانا الآن في جهة واحدة من الشعبة لا تزال تفصل بينهما بارية واحدة عند الحاجز غير المحسوس يفصل بينهما من جديد.

وسألها:

«هل أعجبن بيتر من التوزاه؟»

«ولماذا أعجبن بالتوزاه؟»

«إنه حدث كبير.. أول موعد في حياة فتاة».

وأضاف بطريقة عارضة:

«وربما أول قبلة».

واضطرب نبضها وهي تقول:

«سبق أن قبلني شخص آخر، هل نسيت؟ أنت قبلتني».

وأدخل إيلام يديه في جيبيه بقوة وانقبضت عضلات فكه تحت بشرته الناعمة كما أخذ يكز على أسنانه فجأة، وقال:

«نعم فعلت ذلك.. ولكنك لا يمكن أن تقيسي وزناً لتلك القبلة».

وقبل أن تقول: كيف؟ ولم لا. واصل يقول:

«انصرفي الآن لا تعيري أي اهتمام لما قاله بيتر.. إن مظهرك جميل جداً، وهذا العطر ممتاز، استمتعي بوقتك يا شارلوت».

ومضى إلى الباب يفتحه لها وكأنه يوضح أنه لا يوجد بينهما مزيد يمكن أن يقوله أحدهما للآخر

REMA

٦ ـ دار نشر مصرية لصاحبها.

مكسيم حنين الخامس

وظلا ينفقان ساعات الظهيرة وهم إيمان شارلوت الى السيد فريزر وكان وجه الشبه كبيراً بين الأب والابن فور أن شعر السيد فريزر الكثيف كان يغمر من الرأس وكان يوجهه خطوط حادة.

ووجدت فيه شارلوت شخصاً ساحراً. وشيئاً من سعادتها لأن ابنه عثر على صديقة في مثل عمره وبين المزرعة بأن يراها ثانية ثم استأذن وهمي الى غرفته. وقال إيمان بعد أن مشى أيام:

«يا لأبي المسكين. لقد كبر في السن بسرعة. كان زائد النشاط لو كانت أمي على قيد الحياة لكانت الأمور أفضل بكثير. إنه لم يتغلب على الصدمة بعد وأنا لا أعتقد مطلقاً من ذلك. وأعتقد أن أحد لم يشعر بشيء من الضياع بدون أبيه».

وأومأت شارلوت. وقالت

«هل لك أخوة أو أخوات يا إيمان».

«نعم... لي أخ وأخت. بكراني بسنوات ليست قليلة. أعني ماجي ٢٤ سنة وهي متزوجة من كندي وتعيش في دالكران. أما أختي آلفريد فعمرها ٢٢ سنة وهي في نيوزيلندا الآن. ويعتقد أنه سيقوم هناك. وأنا لا أعرف ما سأعمله بعد. وربما الفلبين أثر والدي إذ ليس لي حتى الآن أي اهتمام خاص».

«وما عمل والدك؟»

«إنه صاحب مصنع بسكويت. ولا بد أنك أكلت من إنتاجه، وشركته سبب

نفس الشاحنين الذين أسسها ماكنتير، فريزر، وكان أحدهما جد والدي».

وبعد ذلك بساعات قليلة كان إيمان قد ودعها بدون أن يقولها بعد أن قضى تلك ليلة سعيدة، وأخذت شارلوت تعتني على الشاطئ، حتى اختفى البحار بدءاً من الأطفال كانت قد استمتعت بالأمسية الى حد ما، ولكن ليس الى الحد الذي يجعلها تنسى ولو لبعض دقائق ما حدث في المكتب قبل أن تخرج. كان إيمان غائباً في الظلمة، ولم يكن يتهيأ الانسجام المتكامل عندما غادرتها في البيت.

كان إيمان يتصف شكلاً بما يدل على نضج في شخصيته ولكن أفعاله في الليلة وقد أبدى أكثر من تلقي عمره في مدرسة داخلية كانت مديرة مشاغبة، وكانت خبرته في الشأن الاجتماعية تحتوي رصيده من المعلومات العامة، اذ لم يكن له اهتمام بالمطالعة. وبحلت ذلك في الساعات الأولى من المساء فبعد أن تحدث كل منهما عن نفسه لم يعد هناك الحديث يشغل بها الوقت.

وعندما دخلت المنزل وجدت إيمان يقف في قاعة الانتظار يتحدث الى اثنين من الضيوف. ورأى شارلوت في الردهة فتوقف عن الكلام لحظة وأشار اليها مباشرة، لكنه لم يبتسم واستأنف حديثه على الفور مع ضيفه.

ولم يسأل إذا استمتعت بالأمسية في شتى بالليلة الحمراء إلا في اليوم التالي. كانت شارلوت في غرفة الجلوس تكوي الغسيل والقرط وفرحات بالظهور عند المدخل.

وأجابته على استفساره:

«نعم... أشكرك».

«وهل تحتاجان ثانية؟»

«لا أعرف».

«حقيقي بالطبع أنه بإمكانك أن توجبي اليه الدعوة لتناول الطعام هناك».

«نعم ولكنني لست متأكدة إذا كانت أريد ذلك أم لا».

«إذن لا داعي».

«لست مضطرة الى مقابلته مرة أخرى... أليس كذلك؟»

REMA

وعبس ليام وقال:

«ولماذا تعتبرين...»

ولما لم تجبه قال:

«لا بد أن تتحدثي يا شارلوت. ما الذي أغضبك ليلة الأمس؟»

واستمرت في كنس البياضات، وهي تقول:

«لا شيء. لقد تعشينا... وتكلمنا ثم أحضرني الى هنا.»

«هل قررت عندئذ ألا تقابليه ثانية؟»

كان قد ألقى السؤال في هدوء وبلا اكتراث. لكن شارلوت لم تنخدع وعرفت أنه لم يكن راضيا وبدأت تدرك السبب.

لم يكن في نيتها أن تخدعه. لكنها لم تستطع أن تتكلم وتخبره الآن في أن تتعرف على ما يمكن أن يحدث لو أنها تركته يمضي. الفهم للثرة أطفأ الليلة. فأجابت:

«نعم.»

كان يستند الى دعامة الباب. وذراعاه مطويتان. لكنه الآن اعتدل في وقفته وقال:

«أعتقد أنه من الأفضل أن تحكي لي ما حدث بالضبط.»

«ليس هناك ما يقال.»

وخطا خطوة واحدة جعلته يقترب فجأة، وأطفأ المكواة الكهربائية وأدار وجهها نحوه، وقال:

«لكنك تحولين كلاما مطاطاً. أريد أن أعرف عما إذا كان الشاب فريزر قد تصرف بشكل سيء.»

وأجابت في برود:

«لا أفهم لماذا!»

«لأنني مسؤول عنك في الوقت الحاضر.»

«وعما عن أمي؟»

«لديها الكثير من المشاغل. والأفضل أن يعهد بمثل هذه المسائل الى رجل.»

وعلى هذه الخلفية لماذا لم تتدخل قبل ذلك. وكانت أمامك الفرصة. فقد قابلت إيان قبل أن تقابله أمي. وبدا أنك تستطعمينه.

«ربما كنت أنت كذلك...»

وتراجعت قائلة:

«أنا لم أقل شيئاً. لكنك أنت الذي توصلت الى الاستنتاج خاطئ. أنا كنت بصدد الأمر برمته سلك إيان بطريقة مهينة تماماً في البيت الأخير. بل بلغ به الأمر أن لم يقبلني وهو يودعني.»

وانحنت أصابع ليام على ذراعها. وقال:

«إذن لماذا تترددين في مقابلته ثانية؟»

وفرت كلماتها وقالت:

«أنه ليس على شاكلتي.»

وتعلب وقال:

«لا أدري من أين تعلمت هذه العبارة. ولكن لا تستخدميها ثانية لأنها لا تناسبك. ما الشيء الذي لا يعجبك في إيان؟»

«لا شيء.»

وسكتت لحظة ثم أضافت في حدة:

«بلا شيء كذلك لا يعجبني في روبرت.»

«هل تعتزم أن إيان صغير جداً بالنسبة لها؟ كم عمره؟ ثماني عشرة؟ تسع عشرة سنة؟»

«عمره ثماني عشرة سنة. ولكنه ليس ناضجاً بما يتناسب وهذا العصر.»

وبدا على ليام وكأنه في موقف دفاعي وهو يسأل في سخرية:

«هل خطر لك أنه ربما حاول أن يبدو الى مستواك؟»

واحمر وجهها وكانت على شفتيها، وقالت:

«هذه لسوء... على ظلمه.»

«وهكذا الحب؟ أليس من القسوة أن ترفضي صداقة إيان بعد بساطتك؟»

وتركها قبل أن تجيبه. وخرج قرار فيرا على كره. إيان يكون تحليل من

REMA

شارلوت، فلم تكد تمضي ساعة بعد حديثها مع ايمان حتى نظرت من نافذة غرفة نومها ورأت إيمان يغرب من البيت وقد أحضر أيده معه وبدأوا السير فريدر عندما شاهدتهما في المدخل قائلاً:

«طاب وقتك يا عزيزتي، أرجو ألا تعتبري حضوري الآن فضولاً، ولكن وصف ابني لغريزتكم جعلني تواقاً لأراها بنفسي، يا له من مكان جميل. كم كنت أتمنى أن تعرف بهذا المكان قبل أن تسجن في هذا المنزل الحالي»

وقال إيمان وهو يبتسم لها

«انه الشعور نفسه بالنسبة إليّ»

ودخلت بيتها شارلوت وبعد أن تحدثت معهما دقائق قليلة ذهبت لتحضر مشروباً، وعندما عادت سألها إيمان:

«يبدو المكان هل شيء كبير من الخوف، هل أنت وحدك هناك»

«كلا فالآخرون موجودون ويتجولون في مكان ما، وذهب انزلا، للصيد في قارب استأجروه طوال اليوم، وأعتقد أن إيلا ذهب الى القرية الواقعة عند الطرف الآخر للبحيرة حيث هي أمي وأختي غادمتان»

قالت ذلك عندما رأت السيدة مارين وفالنتينا دارلان من جهة البيت.

وبعض السيد فريدر من على كرسيه وطفع فيهنه، وأقبلت السيدة مارين، فتحولت ابتسامته الى حيرة ثم الى دهشة وقبل أن تقوم شارلوت بالتقديم الى أمها، وحدثه يصيح:

«هيلين! هيلين ليسبرو»

وتوقفت السيدة مارين فجأة، وهتفت قائلة:

«يا للسماء، غورودون»

وأسلم بيرنارد يد والد أندرو في وجهه قائلاً:

«لقد مضى بعد كل هذه السنين، إنها مفاجأة سارة، فكرت فيك كثيراً، ولكني لم أكن أتوقع أبداً مقابلتك ثانية»

وتمتمت قائلة:

«لا أكاد أصدق... ولا عجب أن بدا وجه إيمان مألوفاً لي، يا للهول، كان علي

أن أدرك من يكون عندما سمعت اسم عائلته، ولكني لم أفكر فيك من قبل بالمرة الكامل غورودون فريزر إلا كنت دائماً أفكر في أنك غورودون وأعرف أنك من سلالة ماكنتيره

وسألت فالنتينا

«معنى عرف كل منكما الآخر»

وضحكت أمها وهي تضحك

«لقد مضى زمن بعيد جداً، منذ خمس وعشرين سنة على الأقل، وربما أكثر، اذني متذكرة أنك عرفتني يا غورودون»

«عرفتك على الفور، ولكنك لم تتغيري يا ذاتي العزيزة ولكنني أنا تغيرت كثيراً»

فقال في مرارة:

«تغير شعرك، ولكن لم يتغير فيك شيء آخر، فابتسامتك هي هي، وكنت سأعرفك مهما حدث، ولا زال بك أثر حادثة الزلاقة كما أرى، أتذكر ذلك اليوم»

وأشار الى جرح صغير في جبهته

«كانت معجزة أن تنجو لم تنكسر، فلتت أنني مت؟ أليس كذلك»

«نعم، لقاني قليلاً، فقد الزعيت، وكانت العصا قد خلقت الثلج و...»

وتوقفت هيلين ثم قالت:

«هل تعرف أنني لم أذكر شيئاً عن تلك الأيام التي تضيناها في العطلة لسنوات.. ولكن الآن أتذكر كل شيء بوضوح كأنه بالأمس القريب»

ونظرت الى ابنتها، وقالت:

«لا شك أنني حدثتكما عن العطلة التي نضيناها في اسكتلندا مع حالي، سيا كان والداي في الخارج، عندما كانت أسرة ماكنتير تسكن الدور الثلاثين الخالية فلورا، وكان غورودون يعيش معهم لأنه كان وحيداً أيضاً»

والتفتت اليه وقالت:

«حقاً حدث لي جميعاً..كنت أتراسل مع مارغريت ماكنتير بعد وفاة السيدة فلورا ماك، ولكن في النهاية قطع الاتصال بيننا»

وأمست البنتان بالتأكيد أن أمها وصديقها غورودون سوف يستغرقان في

REMA

الذكريات لبعض الوقت، فانسحبوا من المكان ليتركوا لها الفرصة.

وقال إيلان لشارلوت:

هذا حظ عظيم، لا شك أن حديث أبي مع أمك سوف يساعده على التحسن كثيراً، فالناس في عمره يحبون أن يتذكروا في الغالب حول ما كانوا يمارسونه وهم في سن الشباب، كان قد سمعت عن حادث اصطدام الزلالة ولكني نسيته تماماً، وأعتقد أن الشيء نفسه حدث معك.

«كلا، فأنا لا أتوقع أن أمي حدثتك به من قبل، سمعنا بعض القصص عن أطفال ماكنتير وحركات الشقاوة التي كانوا يمارسون بها، ولكن أمي تميل إلى الاسترواح أكثر مما تميل إلى الكلام».

وبعد ذلك هان السيدة مارتن في الأيام القليلة التالية أصبحت كثيرة الكلام على غير العادة، مما أثار الدهشة، بل أنهم لم يألفوا أن يروها تضحك كما كانت تفعل مع السيد غريزر.

وعللت فلانيا وهي تتحدث عن التغيير الذي طرأ على شخصية أمها قائلة:

مع أن الكآبة التي يفرضها الشيخوخة...»

لأول وهلة أحست شارلوت بشيء من عدم الاستلطاف للسيد غريزر، ولكن نظراً لأنه كان في الخمسين من عمره على الأقل وكانت زوجته معه فإنها لم تكن تتوقع أن تتعدى كراهيتها الغريزية له إلى حد يحق من أن يريد أن تتواجد وحدها معه في مكان واحد.

وفي صباح أحد الأيام بعد مرور فترة على وصول أسرة غريزر إلى الشقق وكانت قد وضعت المزيد من آنية الزهار على المصدة المقابلة لباب الغرفة، تأملتها بطريقة عربية بأن ضغط على خصرها، وقال:

«صباح الخير يا حبيبتي، كيف حالك اليوم؟»

وضحكت وهي تبعد عنه.

«آوه! يا سيد غريزر كنت أحسبك ذهبت إلى الشاطىء».

وتحسس جيب صيصه وقال:

«نسيت علبة السكاير».

كانت أسنانه وأصابعه اصفرت من أثار التبغ وأغلبه تخلط برائحة الشراب، وكان يملك سماع صوته وهو يغني من أرجاء الصالون في الصباح، وهجمت شارلوت كيف تحتمل زوجته أن تفيله. وخيل إليها أنه لم تكن تفعل ذلك إلا نادراً.

ولم تكن السيدة غريزر أقل إثارة لنفور من زوجها بصوتها العالي الأجش وضحكها الذي صنع بشكل فاضح ورعونتها الصداعية التي كانت تقضي عليها مظهر المحترم لا مظهر الشباب كما كانت تريد.

لم تكن هذه أول مرة يحدث فيها السيد غريزر إلى مغازلة شارلوت، لكنها في المرة أو المرات الثلاث السابقة خرجت ألا تتواجد معه بمفردها بالمحال لتجنب الأخطار.

وعندما دخلت في هذا الصباح:

«مغفرة»

وبادرت أن تعني بعيداً عنه أحرّ على الأسباك يخصرها وهو يقول:

«سمعت أن هناك شاطئاً آخر للعريين، ما رأيك في أن تصحبيني إليه؟»

«ولكنه شاطىء صغير للغاية فضلاً عن أنه بلا كراسي أو مظلات».

«ولكنني أريد أن أراه برغم ذلك، أليس يرضيك أن تعطيني نصف ساعة من وقتك؟»

«آسفة يا سيد غريزر فأمامي مسؤولية تنسيق الأزهار في أماكن متعددة».

«عال، وبذل الأزهار في حجرتي، سأعد لك مشروباً، يبدو عليك التعب».

واعتذرت وهي تحاول أن تتحدث بأدب قائلة:

«لا.. أشكرك».

«سوف أجعلني أظن أنك لا تستطيبيني».

«ليس الأمر كذلك، ولكنني مشغولة جداً في الوقت الحاضر».

«ووجدت ذراعه تحكم حولها قائلة:

«أرجوك يا سيد غريزر

REMA

وبدا للحظة أنه ليس أمامها مفر من أن تخلص نفسها بالقوة من عناقه الكريه، وعندما أوشكت أن تطعن خاصرته الشركس بمرفقها سمعت شخصاً يصرخ الى أعلى.. بريما كان فيولنت

لكن الخادمة السمينة السيد دوبير كانت أقل حذقاً ورشاقة من أنيا حينما تهيأت واستعرضت لجأة كانت بذراعٍ لا تعترض على أن يعانقها، لحاول أن يقبلها..ولكنه لم ينجح لأن شارلوت حركت وجهها عنه فجأة، ولأن شخصاً أمسك بكتفه وألقى به الى الخلف بقوة جعلته يترنح في الجانب الآخر من الممر..

ووجه لها الكلام اليه قائلاً:

«ماذا تظن أنك فاعل..أيها الأحمق»

وحاول السيد دوبير أن يجيب قائلاً:

«أرجوك أن تتفهمي..»

يحتاج أن يلقى عفاً أكبر ولم يجد لديه طاقة يتحدث بها فجرى الى غرفته وأغلق الباب بعنف وراءه.

وانتفضت ايلام ان شارلوت يسألها:

«هل أنت بخير؟»

لم تكن شارلوت تظن أن ايلام يمكن أن يصل به الحال الى تلك الدرجة من العنف، ولكنها أدركت أنه ممكن أن يصل به الأمر الى ذلك، لذا ما استطاعت وأومأت برأسها

وقالت في اقتضاب:

«ينبغي أن نتحدث سوياً، ولكن ليس هنا.. بل وحدنا»

وأخذت بيده وكانت في الطابق الأرضي وأشارت اليه وقالت:

«اخبرني ما حدث بالتفصيل»

وأشارت بكل تهيب وجلست مقابلة بتوقار

«أسفة يا.. ايلام»

وكانت تعني أنها أسفة لأنها سببت له أن يتورط في ذلك الحراك مع السيد دوبير وهو يتفادها منه.

وهتفت في برود

«لعنة! ينبغي أن تتأسفي»

كانت شارلوت تريد منه أن يطيب خاطرها ولكنها سمعت من إجابته فلقد بدا لها أنه يلقي عليها اللوم واعترضت قائلة:

«ولكنها لم تكن غلطتي»

«كنا غلطتك، بالتأكيد، كان الرجل ينظر اليك نظرات خبيثة منذ حل بي الضيق، كان ينبغي أن تتحاشي القرب منه»

«لكنني حاولت ذلك، ولكنت أخبرته، ولم أكن أعرف أنه هنا بل حل الشاطئ، مع زوجته، ولم أكن أتوقع بالمرة أن يتصرف بذلك الطريقة، انه في مثل سن أبي»

«ان هذا الدار.. ولقد حان الوقت لتتحرري من الوهم فأنت لم تعودي فتاة صغيرة بعد ولا ينبغي أن تتعاطي العامة الأجنبية من أحد حتى ولو كان في مثل عمر دوبير»

وهتفت شارلوت:

«ما أعنيه هو غلطتك أنت..فلقد جعلتني أحس بأنني صغيرة لدرجة التي لا أدير رجلا كامل الرجولة، فأنت تعاملني كأنما كنت صغيرة جداً وأنت جدي، أتريدني أن أنظر اليك باعجاب كذلك؟»

واتقدت عيناه بانفعال لم تستطع أن تفهم كنهه، هل هو الغضب؟ لم تكن متأكدة من ذلك.

وأجاب بطريقة مهذبة

«لعلم يمكنك أن تفعلي كذلك»

وتركها وكان ذلك خاتمة المرسوم في نطاق عملها.

ورحلت آسية دوبير ورحل خلفها آخرون وظلت الفيلا رحبة لمدة أسبوع أو أسبوعين، وفي إحدى الليالي بينما كانت شارلوت تستعد للنوم جاءت أمها الى غرفتها تقول:

«هل أنت متعبة؟ هل يمكن أن أتحدث اليك بعض الوقت؟»

ووضعت شارلوت فرشاة شعرها جانباً وقالت:

REMA

«عن أي شيء يا أمه؟»

«الموضوع يخص فلانيا كذلك.. وهي قادمة.»

وجاءت السيدة مارتن من الفراش تتحسس أظافرها، وكانت في الأيام الأخيرة قد بدأت طلاءها بطلاء عديم اللون، وعندما وصلت فلانيا قالت:

«اغلقي الباب يا عزيزتي حتى لا يخلق صوتنا كثيراً.»

وأغلقت فلانيا الباب وهي تقول:

«لماذا هذا الهمّ العاتي؟ هل هناك شيء خطير؟»

«لا.. ولكن لدينا ما نقوله لكما، ولا أدري هل هي مفاجأة. فربما تكونان قد فهمتما.»

ونظرت إليهما متسائلة.

وسألتها شارلوت:

«ماذا؟»

«إن خوردون وأنا.. خوردون فريزر طلب مني أن أتزوجه.»

وتبادلت البنتان في أمهما بصمت، ثم سألتها فلانيا:

«وهل قلت؟»

«لم أدرِ بعد.. فلست متأكدة من شعوركما وشعور الصبيان نحو هذا الموضوع.»

«ولكن.. ما شعورك أنت؟ هذا هو الأهم.»

«لا تكترثي بي، ما الذي تريدينه أنت؟»

وبدا أن تهيب الأم، واصلت فلانيا تقول:

«يبدو أن تقول نعم أعتقد أنها فكرة طيبة.»

«من تعتقدين ذلك عفاً ما رأيك يا شارلوت؟»

«اتفق مع فلانيا فالسيد فريزر رجل لطيف.. ولقد استطاعت منذ أول مرة قابلتنا فيها.»

وتنهدت هيلين واسترخت، وقالت:

«كنت أخشى أن يكون وقع الشاي علينا سيئاً، ولكن يبدو أنكما كنتما مهيأتين لذلك. هل يرتاح الأولاد؟»

وأجابت فلانيا

«لا أظن.. ولم لا يرتاحون؟ هل عرف إيان بذلك؟»

«قال خوردون أنه سيخبر إيان الليلة.»

وأضافت شارلوت:

«أعتقد أن إيان فعلن الى ذلك فقد قال لي منذ أيام أنه يظن أن أيان سيقيم هنا بصفة دائمة، وقال بطريقة تحت النظر، ولكنني لم أعرف ذلك ما كان يقصده.»

وهزت أمها رأسها وقالت:

«أظن أن إيان لم يقوم بعد أبيه. فخوردون لا يزال في السادسة والخمسين من عمره وليس في سنه أن يعتزل الخدمة بعد، وحالته الزوجية مؤقتة وليست خاتمة فيالله العملية. وسوف يعيش في بيته الذي يقع بالقرب من لانبرو.»

وسألتها فلانيا في قلق:

«متى؟ وبعد كم من الوقت؟ هل؟»

«لا زال أمامنا الوقت، ولم نتوصل بعد الى خطة محددة.»

«هل ستزوجين هنا أم هناك؟»

وقالت هيلين:

«من الممكن أن يتم الزواج هنا، ولكن حتى ذلك لم يتحدد بعد لم نقرر شيئاً حتى الآن.»

وأحنت شارلوت برؤوسا وعداع يسألت:

«وماذا عن أيان؟ هل عليك بالموضوع؟»

وابتسمت أمها وقالت:

«أعتقد أنه ربما نعطن الى ذلك، فأيان ذكي، وسأترك لتتحدث معه الآن.»

وقالت شارلوت في ثأر:

«ولكنه يحتاج الينا ولا نستطيع أن نهجره.»

«لا أعتقد أنه يجد صعوبة في استبدالنا بموظفة أكفأ، وخوردون مرتب جيد بنشاط أيضاً، وتذكري، ويتعين أن يساعد مالياً، ويعتقد أن الفندق المستقبل ناجح والواقع أن أيان يحتاج الى رأس المال أكثر بكثير من حاجته الينا، وسوف تتحسن أحوالنا قليلاً بعد أن نتركه.»

وتنهدت ثانية.

REMA

«ليباركها الله. انكما على درجة كبيرة من التفاهم فلماذا تنفصلان؟»

عزيزتي»

وقالت فلافيا بعد أن انصرفت أمها:

«قبل أن أدلي بأي كلمة أخشى أن أقول إنني أرى أنها فكرة جيدة. لم أكن أعلم أبداً بأنها تفكر في الزواج من جديد وأن تجد الحل لكل مشكلاتها.»

وقالت شارلوت في صوت خفيض:

«كل مشكلاتك أنت.»

«لماذا تعتقدين ألا تريدينها أن تتزوجه؟»

«أريدها سعيدة بالطبع. ولكني بصفة خاصة لا أريد أن أذهب الى اسكتلندا.»

«لماذا يا شارلوت؟ أنا لا أفهمك. أمضينا كل حياتنا سجناء في الغابات المحترقة، بعيدين عن كل شيء حتى ألا تريدين أن ترى العالم؟ ألا تريدين أن تعيشي ولو قليلاً؟»

«أنا أعيش هنا وأحس بالانتماء الى هذا المكان الذي أحبه.»

وقالت فلافيا:

«حسناً، بامكانك أن تأتي الى هنا باستمرار في المستقبل، اذا شئت.»

وأمست شارلوت في الأيام التالية كأنها منجرفة في دوامة. ولم يكن بوسعها رغم ما تبديه من مقاومة وعدم اكتراث أن تتفادى تلك الدوامة. كان هناك شخص واحد يستطيع أن يفعلها ولكنه لم يبد عليه أن يدرك المأزق الذي تجد نفسها فيه. ومن سخرية القدر أن الشخص الذي أحس بها تمامه كان زوج أمها المنتظر.

وسألها ذات يوم وهما يجلسان وحدهما:

«هل أنت آسفة يا شارلوت لأنني عدت صداقة مع إيان؟»

ونظرت اليه في صمت لحظات ولم تستطع أن تتظاهر بأنها لم تفهم ما يعنيه. وقالت في هدوء:

«كلا أنا سعيدة بهذه الصداقة التي تسعد أمي. اذ كانت حياتها قاسية وأنا مسرورة بأنها ستكون هادئة من جديد.»

«ولماذا لا تظنين بعد الأمل الى مستقبلك أنت؟»

ونظرت شارلوت رأسها وقالت:

«لا أحد من الآخرين يشعر بالانتماء الى هنا كالمكان. اما أنا فأحس بهذا الاحساس. ربما كانت انكليزية بالمولد، ولكن لم يعد ذلك أهمني الى هذه الجزيرة.»

وابتسم وقال:

«ولكن هذه ليست الجزيرة الوحيدة في العالم كما تعرفين فهناك جزر في اسكتلندا أيضاً. وهي جميلة للغاية وان تحرمي من الأشياء التي تحبينها كالسباحة ورياضة التزلج وغيرها في الصيف.»

وقاطعته قائلة:

«ولكن الصيف قصير للغاية هناك، فهو يدوم أسابيع قليلة، و إيان يقول ان الجو نادراً ما يكون حاراً هناك.»

وعلق السيد غريزر قائلاً:

«السعادة لا ترتبط بالمكان يا شارلوت بل تعتمد على الصحبة وحتى لو كان عمرك أكثر بعدة أو سنتين واستطعت البقاء هنا أعتقد أنك ستحسين بالشعور نفسه عندما يذهب عنك أصدقاؤك وأعز من تعرفين.»

وتبرأت حل الاجابة:

«هذا هو الذي لا يفهمه أي شخص... إن أعز شخص لي هو إيان.»

وتقرر بعد مناقشات طويلة أن يتم حفل الزفاف في اسكتلندا، ويرحل إيان وأمه الى البلدة قبل رحيل أسرة مارتن ببعض الوقت.

وهذا الخبر أدهشه أن أيان رفض عرض غريزر بالمشاركة في استثمار الفندق معتذراً بأنه لا يقدر أن يتخلى عن المشروع فجأة ومع ذلك فانه كما توقعت هيلين لم يجد صعوبة في استخدام عمال من القرية حتى الجزيرة الرئيسية بعد أن نمى الى الناس السمعة الطيبة.

ولم تستطع شارلوت أن تفهم سبب عدم اكتراث أيان الواضح برحيل أفراد أسرة مارتن. هل كان من الممكن أنهم حيها الصيني له ألا يبدي أية مشاعر تجاه أي من أفراد الأسرة.

REMA

في الليلة الأخيرة التي قضتها الأسرة على الجزيرة كانت شارلوت تعاني من يأس شديد جعلها تحس باليأس. وحين أوى الجميع الى فراشهم مستكينين استعدادا للرحلة الطويلة التي سيقومون بها في اليوم التالي، بقيت هي بدون أن تبدل ملابسها، وانتظرت لمدة نصف ساعة حتى ساد الصمت، وفتحت باب غرفتها في حرص وتسللت تجاه الدرج الخارجي العريض.

ووجدت شعاعاً من الضوء يتسرب من أسفل باب غرفة ايلام. فيما ترقصت، واخذت نفساً عميقاً ثم نقرت على الباب وسمعت صوته يقول:

«ادخلي».

كان يجلس على كرسيه المريح وعلى حجره كتاب وإلى جانبه مرفقه كأس فيه بعض الشراب وبين أصابعه سيجار. كان الرعي باديا عليه تماماً، وعجبت كيف يجلس بذلك الرسمي سنوات تعاني هي كل اليأس.

وعندما عرفها، لم تتبع حاجباه، وقال:

«أهلاً يا.. شارلوت. أما زلت يقظة؟ كنت أظن أنك استغرقت في النوم الآن، وخاصة أنك ستستيقظين في وقت باكر غداً».

«لا أريد أن أعدت اليك يا ايلام. انا أتيت».

«حسناً».

ونبض وأثر دهشتها عندما قال:

«أفضل أن تتمشى على الشاطئ، حتى لا نزعج أصواتنا الآخرين، للأصوات تجري بسهولة في الليل».

«حسناً».

ويقبل اليها أن هذا الأمر سيساعدها على أن تبوح بمكنون نفسها. وتبعته عبر الردهة وهي ترتعد من التوتر العصبي.

«.. ما هو الحب يا سيدي؟ لا أعرف.. ولكن سأحاول ذلك».

«كليوبترا»

وفي الطريق الى الشاطئ، لم يتبادل أحدهما بكلمة. هناك جلس ايلام وسألها وهو يخرج حفنة من الرمال:

«ما الموضوع؟»

«لا أريد أن أرحل غداً».

«ولكن يجب أن ترحلي يا شارلوت».

وتأملت عن كثب ملامحها وقالت:

«انك لا تفهمني.. انا أحبك، أحبك يا ايلام».

وصمت لحظات بدون أن يجيب، وظل يرقب الرمال تنساب من راحة يده ثم قال:

«ما زلت صغيرة يا شارلوت، ولذا لا تعنين ما يجتاح في جنانك. كنت أعرف هذا منذ بضعة الشهور».

ونكست في صوت أبي:

«ربما ظننتها مجاملة.. أن أبي صغيرة على الحب».

«كلا. الحب الأول أقوى حب وهو أكثر الانفعالات ألماً».

«انه ليس ما تصفه الحب الأول.. انه حب حقيقي، حتى أنني مستعدة أن أجري من أجلي أشياء».

«شارلوت تقترب مني في السرير

REMA

ولكن ما أهمية هذا؟ أعرف أنني لست جميلة أو ذات مركز اجتماعي مثل ..... ولكنك تحبني، وفي أول مرة تنابذنا عاتقني. أنا أكبر سناً الآن. أنني أمرأة.

وقال ساخراً:

حقاً يا شارلوت؟ أشك في ذلك.

نعم، عاتقني ثانية وسأثبت لك ذلك.

وخرج منه صوت كأنه ضحكة مكبوتة أو أنة غاضبة، بينما بدأت سحابة تغطي وجه القمر ولم يعد يوسعها أن ترى وجهه بوضوح.

وقال في هدوء:

جأت الني طليق..»

وجذبها بين ذراعيه برفق، وتسلل ذراعاها حول عنقه ولكن عندما عانقها ارتعشت وتصلبت ذراعاها.

وتمتم في أذنيها:

دعينا الى غرفتي الآن.»

وتصلّب جسمها ولمحت عينيها، وهمست:

«فرنك!»

«نعم لا؟ انا كنت أحبيتني.»

«لكنني ما قصدت..»

وأسكتها بعناق حتى لكنها صارعت لتخلص نفسها.

«لا..يا ليام! لا تحاول!»

«ظننت أنك أحببتني.»

«نعم، أحبك، وبعد كثيرة، ولكن ليس هذا هو الحب.»

وأطلقها في قسوة.

«إذا هكذا..ها الذي صوّر لك أن بإمكانك تغريري؟»

«لم أتصور ولكنك لست هكذا.»

«انا أنا وبمعظم الرجال هكذا..ففي الأمور تكون البادرة من جانب الرجل، فإن أنت من جانب امرأة يساء فهمها، ولعلك تدكرين هذه الحقيقة في المستقبل.»

لم تكن لتصدق أنه يمكن أن يتحدث بتلك الطريقة الوحشية، وسألها بمرارة:

«كم يخطر لك..من قبل أنني لم كنت مشغولاً بك لتصرفت أني تصرف..انت لا تحبينني ولكن مفتونة برجل لا يعبر له إلاّ في خيالك الصبياني.»

وأحست بصدمة كبيرة، كان كثيراً ما يلجأ الى اغاظتها ولكن لم يسبق له أن سخر منها.

وانتفضت مبتعدة فأمسك بمعصمها بقوة.

«والآن انك لا تتحملين الانتظار حتى نرجع غداً؟ ربما كان الوداع هو العلاج.»

وغلبت نفسها وهي تقول:

«انه كذلك.»

«ليس لك وحدك..فمجموعة الأسرة المحيطة بي أصبحت شيئاً لا يطاق..الوحدة ليست مشكلتي على الاطلاق.»

وأسرعت شارلوت الى الهروب.

لم يكن بإمكان شارلوت أن تخفي جثتها للمزعجين في الصباح، ولكن أحداً لم يعلق، كان الجميع يشعرون بأسى القران، حتى فلانيا كانت تحاول أن تكبت مشاعرها. وتقلبت ليام عن الانتظار ولم تره شارلوت إلا في الوجبة قبل السفر الى البابسة، ووقع الصبح فيرليت على التضحي، وبكت فلانيا كثيراً بينما لم يبق شارلوت صوع دفرقها، ووقفت على الرصاد حتى القربة تطير غير القناة الى الجزيرة التي لن تراها ثانية، كانت قد أحبتها أكثر من أي فرد آخر لكنها، الآن كانت أول من أدار ظهره أليها.

ووصلوا الى المطار بينما لا يزال أمامهم بعض الوقت قبل أن تقلع الطائرة، ثم حان وقت الرحيل.

وسألت هيلين ليام قائلة:

«لن تنسى كرملد يا ليام، أرجو أن تعتني بنفسك.»

وقبّل وجنة هيلين ووجنة فلانيا والتفت الى الأولاد ثم قال:

«وداعاً يا شارلوت ورحلة سالمة.»

ورفعت بصرها اليه وقالت:

REMA

وجناته.

ولم يحاول أن يمنعها أو يستفسرها.

بدأت الطائرة تتحاشف من سرعتها على المدرج وأشرا حينما النظرة الأخيرة ولوحوا بأيديهم من النوافذ فيما عدا شارلوت التي ظلت أحد كرسيات الطيران لتدرس خريطة الجزر، ولكن جزيرة سولياك كانت أصغر من أن تسجل على الخريطة.

وسألتها أمها وهي لمس تراقبها في عطف:

«هل أنت بخير يا عزيزتي؟»

«نعم، ولماذا لا أكون كذلك؟»

«كنت أتمنى أن تعترف لي، من الاضطراب.»

«أنا لا يضايقني الرحيل.»

علت الطائرة فوق المناطق غير الآهلة من شمال الأطلسي وكان الوقت ليلاً وقد أخذ الجميع إلى النوم وذاكرت شارلوت. وهو يقول: «الحب الأول أقوى حب وهو أكثر الانفعالات ألماً. وكيف أطفئها على عجل عندما قررت وكسف حلت فيما قبل ذلك بثانية في أفق السعادة، وأقنعت نفسها بأن كل ما قاله لم يكن إلا تمثيلاً.

وحطت الطائرة في انكلترا. فأحس الجميع بالسرور، وكانت آسرا تريد في الانطلاق ويركون. فلاليا. أفقها وهي تركبان السيارة الكبيرة قائلة:

«انظري! أنها لا تطير.»

وتوقفت السيارة عند إشارة مرور فرأت شخصين من الهزيرة، شريكين في المنجم، وقد انتزعا ملابس ثقيلة رمادية بدلاً من الملابس القطنية الفاتحة التي يلبسانها في بلدهما، وكانا يضحكان معاً وتخطر لها «لماذا كان يوسيميا أن يحتملا البعد عن الوطن فسيكون يوسفي أنا بالتأكيد.

وخاطبت شارلوت نفسها قائلة:

«كان ذلك منذ أربع سنوات والآن أن الأوان. التي حائمة ولكنني أحس بخوفه منذ.» «أشريني برأيك يا أستاذ، هل أصبه خطأ أم أنه انفعال مراهقة؟ وماذا لو

وجدته قد تغير؟ بل ماذا لو كففت عن حبه الآن؟ هل أكون أشراً حالاً.

كانت آسرا قد نصت باهتمام، وسألتها:

«ألم يكتب إليك؟»

«لم يكتب إلي، ولكنه ظل يكتب إلى أمي بعض الوقت.»

«وهل تعرف أملك بخير رجاءك؟»

«كلا. لم أعدت إليها ولا إلى أي شخص على الإطلاق عنه قبل الليلة. لا بد أن تكون قد غفيت شعوري نحوه عندما غيرنا الغربة ولكنها لم تقل شيئاً، وربما كنت أن مشاعري حينذاك كانت مشاعر مراهقة سرعان ما تزول، هل هي كذلك؟»

وعلقت آسرا:

«لست متأكدة، ولكن القليل جداً من الناس من حسل الى النضج في سن التاسعة عشرة، ومن القطأ أن تتزوج الفتاة في تلك السن، لكني لم أسع عن مشاعر مراهقة تستمر الأربع سنوات، أعتقد أنك ربما أحببته حقاً، هل يمكنك وين تفسك تستمر أن يكون وقع في حبك بالفعل؟»

«لا، فأنا متأكدة أنه لم يكن يعني، ولكن الأمر يختلف الآن، فلقد تعلمت الكثير في هذه السنوات الأربع.»

«وأنا عتر لك أن تعايشيه، فهل لا زلت تريدينه؟»

«وبشرط ألا يكون ارتبط بأخرى.»

«لا أعتقد أن هذا محتمل.»

«ربما ولكن ألا يكون من سخرية القدر أن انتهي سنوات أربع أدفر أجر السفر، وأخيراً أجد زوجي.»

وتهدج صوت شارلوت. وعندئذ قالت آسرا:

«سهرت كثيراً وأنت منهكة، انهضي الى الفراش، سأحضر لك مشروباً ساخناً.»

«عاشرت ولنا مناسباً للغاية لأحكي قصتي، يا للمسكينة أسرا، ستكونين في غاية الارهاق غداً.»

«هراء، انا سعيدة ولم أشعر بالضجر على الاطلاق. لم أكن أتوقع لهذا التعاقلين الرجال الذين يحبون بك. والآن قهيت السر، لا بد أنه يستحق العناء، ذلك

REMA

الرجل. إيلام هاملتون.

«نعم، هو كذلك. أو على الأقل كنت أظنه. منذ أربع سنوات.»

وأحست شارلوت بانكماشة من جديد، ودفعتها أنيتا برفق نحو غرفتها وهي تقول:

«هنا. ادخلي. لن أتغيب كثيراً.»

وسألت شارلوت عندما عقت بها تقول:

«ألم يخطر لك أن تكتبي إليه لتخبريه أنك تفكرين في العودة للقضاء إجازة؟ وتزوري الأماكن التي كنتما ترتادانها؟»

«فكرت في ذلك لكنني خشيت. ربما لا يريد أن يراني ثانية. أريد أن أراه ولو لمرة واحدة. لأتأكد من شعوري نحوه.»

«أنا لا أقول بذلك، شارلوت مارتن الوحيدة، ولكن من المحتمل أن يعرف عن طريق إجراءات الحجز أنك شارلوت التي يعرفها وربما كتب إلى أحد المحققين من سفره.»

«لا لقد حجزت باسم مستعار.»

«حقاً؟»

«حجزت باسم كلاي هاليارد واخترت كلمة هاليارد لأنطق الاسم مع الحروف الأولى المنقوشة على خاتمي.»

«لقد سوف تضطرهم أن تختلي الغرفة قبل أن يعرف عليك.»

«لا أعتقد. يوجد فرصة لتعرف على نوعاً. وليس أمامي أية مطارة فائدة. وعلاوة على شعوري.»

«واقعاً ما تبين لك أنه لم يكن يحاول الزواج الذي أعتقدته.»

«عندما تكون في الحرية في أن أحدد لحظتها أخرى.»

ورفعت كفيها فوق رأسها وهتفت:

«ولكنه لن يتدين. أنا واثقة. ليس هناك رجل مثل إيلام.»

وبدأها كانت الاستثناء. وهو يستحيل الاحتراف.

«هل استمتعت برحلة طيبة. يا آنسة هاليارد؟»

«نعم. أشكرك.»

لم تكن تتوقع أن تجد تغييراً يشمل كل شيء تقريباً. وملأت البيانات الفندقية وهي في حالة تشبه الدوار، وحرصت على ألا توقع باسمها الحقيقي.

وتكرت الشاب الذي حل حقيبتها الى الطابق العلوي وأعطته البقشيش.

كان المبنى في أول الأمر يضم أربع غرف كبيرة شاغلة على الواجهة. لكل منها بالمدخل وباب ذو كوة في أعلاه يؤدي الى الشرفة الخارجية. ولكن هذه الشرفة قسمت الآن الى أربع شرفات منفصلة. وتحولت الغرف الداخلية الى أجنحة وخصصت لشارلوت الغرفة التي كان إيلام يختارها تحديداً. وأصبحت الآن تضم غرف الجلوس والنوم وحماماً صغيراً. واستحدث بسقف صناعي لتصحيح ارتفاعات السقف الأصلي. وبدا الجناح في طراز أمريكي يتسم مع الطريقة التي أعدت بها كتب الاستقبال.

وجذب انتباهها لأول وهلة بطاقة دعوة من الادارة وضعت الى جانب برميل شراب تكيلا.

«احتم نفسك بشراب كوكتيل جزيرة هاغود

يتبع

وضعت شارلوت قبعتها وخرجت وكأنها بيدها وأسندت برقبتها الى الدرابزين تحدق في دهشة الى الخريطة المنقوشة بين المبنى والشاطئ، في تسبيح وجلل.

كان يعطر التلال يتمدد على جانبها من الوادي المنخفض أو على مقاعد وثيرة تحت سقف الخيش. وكان أحد الخدم يلبس سترة بيضاء ويقدم المشروبات بينما يجول زبائنه في الفندق ومعه صينية مذيبة بالكؤوس المثلجة.

يرتد في سمعها صوت من الماضي. إعلان عاطفي صدر عن ثلاثة صغيرة تقول: «اشتري الجزيرة في يوم ما وأعيش هنا وأزيل كل الأشجار بين المبنى والشاطئ، وأنشئ صينية بيضاء... سيتسع أهل مبنى... وستعتلي جميع الأثرياء الأمريكيين أن يشتروه... لكني لن أبيعه حتى بمليون دولار.»

كانت الجزيرة تساوي الآن مليون دولار... ولكن لم يكن حلمها هو الذي

REMA

يتحقق. لقد أصبحت جزيرة سولينغان مركز السحر والغموض الى الأبد. وأصبحت جزيرة مالافر حلم الصانع وليس حلمها.

وأطلقت تنهيدة. أنها ليست بحال كما رأيتها... ربما كان كل شيء وهماً وربما كان اليأس هو الأمر كذلك.

وقررت أن تبقى في غرفتها حتى المساء لتستريح، فاستحمت وتعطرت وجعلت الدرج الى الحشد وتسأل عنه.

كان للتليفون الموضوع في البهو ثلاثة أزرار.. أحدها لخدمة الغرف والثاني للمضيفة والثالث للمكتب، وضغطت شارلوت على الزر الخاص بالمكتب. وسمعت صوتاً يجيبها قائلاً:

«الآنسة ماليارد من الجناح رقم ٦ تتكلم. هل يمكن أن أتحدث الى السيد ايلام هاملتون؟»

«أسف يا آنسة ماليارد، غير ممكن الآن، هل ثمة مشكلة أو مساعدة؟»

«لماذا لا أستطيع التحدث الى السيد هاملتون؟»

«السيد هاملتون غير موجود.. أليس هنا يا آنسة ماليارد»

«الآن أين هو؟»

«في رحلة عمل يا سيدتي، ولكن السيد لنتر على استعداد لخدمتك، وسأوصله بك»

«لا انتظر، لا تكلف نفسك العناء كنت أريد أن أتحدث الى صاحب الفندق، متى يعود؟»

«يوم الجمعة»

«ليست... أتتذكر؟»

وأخذت السماعة الى مكتبها.

يوم الجمعة خمسة أيام انتظار! خمسة أيام! يا الله! لم يكن قد خطر لها على الاطلاق أنه ربما يكون مسافراً، يا لسخرية القدر!

وتناثرت أقسامها وقد أنهكتها الرحلة الطويلة واتجهت الى غرفة نومها وارتمت على الفراش واستسلمت للبكاء. ثم استغرقت في النوم بعد فترة.

واستيقظت وكانت الغرفة أكثر ظلاماً وعرفت أنها باتت ليلة الساعتين. وأدركت من الضوء الذي ينفذ من خلال الناقذ الخشبية أن الوقت قبيل الغروب بدقائق وقد تحول الزهر الذري من الأسود البنفسجي والأحمر والقهوة الى ليل. ثم تذكرت الأيام الخوالي التي كانت تعرف فيها الوقت لا من عقارب الساعة بل من لون البحر وظل الشجر وحرارة الظهيرة، ونسمات العطر الفاترة.

وسمعت صوت موسيقى لم تكن متأكدة من مصدرها وكانت مصابيح الحديقة قد أضيئت وليست لستاناً قصيراً أخضر من الحرير الجرسيه لتحضر به العشاء.

كانت آخر نزيل دخل قاعة الطعام، وابتهجت عندما وجدت مائدتها في أحد جوانب القاعة. وكان يومئ لها أن ترقب الآخرين يتأتى من هيئتهم، وتفحصت قائمة الطعام.

واختارت سمكاً لذيذاً من الحساء وهي تعين الظهر في وجوه النزلاء لكنها احست بشخص يتفحصها من مائدة خلفها. والتفتت بطريقة عارضة، فتطلعت حولها وابتسم لها. واستطاعت أن ترجح أنه شاب أمريكي جد وحيداً.

أحست به طوال العشاء يحدق اليها كانت طريقة الظهر ممتازة، والخدمة كذلك ولم تكد تفرغ من تناول الحلوى حتى جاءها الخادم يقدم:

«فنجان قهوة يا سيدتي»

«شكراً.. سأشربه في قاعة الانتظار»

وشكرته شارلوت وتركت قاعة الطعام، وقررت أن تستطلع التغيرات التي أدخلت على مؤخرة البيت خطر لها لما كانت فيرليت. هنا ضيوف أدابها أن عاجلاً أو آجلاً..ولن تتذكر لي.

واكتشفت وجود ملحق للبيت وحدها من الغرف القضاة بالمصابيح تتفرع أمام مجموعة من الأكواخ لعمال أسماك مثل كوخ دوانين كوخ الرسام وغيرها..وكان من الواضح أن أمام بنى العديد من الأجنحة السكنية التي يفضلها الأزواج الجدد وأولئك الذين لا يحرصون على الاستمتاع بالسهرات داخل المبنى. وحادت لترى التغييرات التي أدخلت على قاعة الانتظار ووجدتها

REMA

قد تغلب بالضجر الآن.

وأحضر الخادم القهوة وأخذت تقلب صفحات المجلة الأمريكية المعروفة باسم هوليداي. وسمعت صوتا يقول لها:

«أعتذر عن مضايقتك على مائدة العشاء. لم أستطع أن أقاوم رغبتي في أن أرسم، ولكنني لن أكرر ذلك».

كان هو الأمريكي الذي يقيم بفندقها. ووضع صحيفة على المجلة التي أمامها، ورجعت أن الصورة لها بالفعل وقد رسمت بدقة ومهارة وسألته:

«كيف عرفت أنني فضائية؟»

«لأنك جئت في توقيت حتى أطلع الطعام عني، أكثر اعتذاري لقد جذبت الطريقة التي تضعفين بها شعرك انتباهي، والرقبة الطويلة علامة الجمال ليس هذا اطراء ولكنها الحقيقة».

وسألته:

«هل ترسم مهنتك؟»

«نعم، جئت الى هذا لأسباب صحية من جهة ولأقوم بتسجيل بعض الانطباعات كواجب مهني من جهة أخرى. أسف لم أحضر لأنصر عليك قصة حياتي ولكن لأحفظ وسأجلس مستقبلاً في مكان آمن أحسنت مساء يا آنسة».

وخرج وقد ترك الرسم معه. وكان يعاني من عرج بسيط وتعجبت كيف عرف اسمها وفكرت في الأسباب التي دراد علة سألته وظنت أنها تستطيعه الى حد ما.

وصعدت الى الطابق العلوي وفي نيتها أن تقوم بمركزة للتصعر مع الشروق وتسبح في البحر قبل أن يستيقظ الآخرون، لكنها قابلت على الدرج العريش امرأة من الجزيرة كانت تصعد بأرز وفاكهة من مزارعين بالبلاد وتعرفها بحريها أنها له يمكنه بإعداد وتحمل سلة من الفاكهة ولوحا للكتابة وعديد الأوراق.

وابتسمت المرأة وكادت تواصل سيرها لكن شارلوت أمسكت بذراعها قائلة:

«فيوليت، ما أروع أن أراك ثانية».

ونظرت حينا فيوليت وهي لا تكاد تصدق:

«يا إلهي! شارلوت الصغيرة».

وانهمرت عينا شارلوت قطرات الدموع من عيني فيوليت التي ألقت بالفاكهة وعانقتها عناقا حارا، وانهالت الأسئلة من كل منهما لم توقفها وهما تضحكان من الاضطراب الذي وقعتا فيه.

وقالت شارلوت:

«لا تستطيع أن تتكلم هنا. لتذهب الى غرفتي، لكن لا تخبري أحدا يا فيوليت أبي تعرفينني، الاسم الذي ينادونني به هنا هو كلير جاينارد، أريد أن تكون مفاجأة لهم عندما يعود من بارباكوس. كيف حاله يا فيوليت؟ هل تزوج؟»

«لماذا؟ يتزوج؟ ليس لديه وقت للزواج يا حبيبتي، لقد تزوج العمل تقريرا كتبها بعد رحيلكم انه يريد أن يجعل الفندق أفخم من قصر باكنغهام».

وفتحت شارلوت الباب، وقالت:

«هل تظنين أنه سيسر لرؤيتي؟»

«لا أتصور أنه يتساءل بعد الساعة التي قدمتموها اليه».

«تعالي واحكي لي أخبارك. انك تدين وكأنك رئيسة مستشفى في هذا الزي. هل هو زي العمل الرسمي؟»

ولفهقهت فيوليت.

«أنا مديرة الفندق الآن، ومن واجبي أن ألبس زيا أنيقا».

وخدشتا توقت طويل وقالت فيوليت:

«كنت أظنك تزوجت الآن، ولديك أطفال يا آنسة شارلوت».

«أوه يا فيوليت! لست الآنسة شارلوت بل نادميني حبيبتي، كما كنت تفعلين حتى آخر يوم بالسفينة عن جديد. ألست سعيدة هنا؟»

«أوه نعم، ولكنني كبرت الآن، بالطبع لست بالسذاجة كما كانت فيا مضى. أرجو أن تحتفظي بهدوئي سرا حتى يعود السيد».

وانصرفت فيوليت الى عملها بعدما تمت شارلوت ليلة سعيدة.

كانت خلال النهار لا تزال تقف على معظم الحديقة عندما خرجت شارلوت

REMA

لتستحم في الصباح التالي وانزلقت في الماء وقد أطلقت تنهيدة تعبّر عن سرورها الكامل. ولم يكن ثمة شيء بين مياه البحر في انكلترا وهذه المياه الدافئة اللامعة التي عانقتها بحب لا مثيل له من حب فيولت وعنادها في الليلة السابقة.

ولكنّ صوت عمل وهي تغوص الى ما تحت السطح تقول لنفسها: «لقد تم تطهيري».

لم تمكث طويلاً تحت السطح فقد عانت من نقص التدريب، كما أنها خشيت أن تحمر عيناها فتشوه الصورة التي يراها ايلام عندما يتقابلان بعد الزمن الطويل الذي انقضى.

وعادت الى سطح الماء من جديد تسبح في استرخاء كما يفعل السباح.

وكان هناك شخص آخر استيقظ في تلك الساعة الباكرة: السائح الأمريكي الذي لم تكن قد عرفت اسمه بعد. وقد وصل الى المكان في الوقت نفسه حين خرجت هي من الماء وقال:

«صباح الخير، حسبت أنني الطائر الوحيد الذي يحوم في هذا الوقت».

وخلعت قبعة رأسها، وتلفتت الماء عن شعرها الطويل وهي تقول:

«إنه أفضل الأوقات في».

وسألها وهو يعاونها على ارتداء إزارها:

«هل حضرت الى هنا من قبل؟»

«نعم... وهل سبق لك أنت ذلك؟»

«لا، هذه أول زيارة لي».

وحدّقت وجهها وأخذت تستنشق هواء الجزيرة الطلق، وقالت في نشوة وأشعر بأنني بعثت الى الحياة. وأحس أن بوسعي أن أبتلع عملات إسدى العربات».

وسألها مبتسماً:

«أخلف لك طعام الافطار هنا اذا رغبت؟»

«سأظله بنفسي، ويمكنك أنت أن تستحمي ولكن... هل اطلب لك كذلك كم سنيمك في الماء؟»

«ان أمكنك طويلاً».

وقابلت شارلوت أحد الخدم وهي في طريقها الى الشاطئ. وطلبت الافطار لشخصين... وعندما عادت الى الشاطئ، كان الأمريكي ملف وقد وصل الماء الى وسطه، وكان قد خلع رداءه وتركه قرب حافة الماء. وعندما خرج ارتداه قبل أن يجتاز الرمال الى حيث جلست. لكنها رأت شيئاً أراد أن يخفيه اذ أثار جرح مروع في ساقه. وعرف انه رأته فقال بعد أن جلس الى جوارها:

«آسف... كنت أود أن أخفيه... فانه منظر بشع».

«ولكن كيف وقع ذلك؟»

«لي حادث سيارة وكدت أن أفقد ساقي لولا حسن حظي. أرجو أن تنسي أنك رأيتها، أخشى أن يطلبوا مني مغادرة الفندق لأن منظر ساقي مزعج للنزلاء».

«ليس فيها ما يرعب الضيوف الآخرين، ومع ذلك فهناك شواطئ صغيرة حيث لا يراك أحد وسأصحبك الى أحدها إذا أحببت».

«أتشكرك! ما رأيك في أن يكون ذلك اليوم؟ اذا لم يكن لديك برنامج آخر».

«انا حرة حتى يوم الجمعة».

«حسناً... حالما تتمهين من الافطار سأجهز قاربي وأخرج للاستطلاع».

وواصل يقول:

«اسمي بيتر دين، وينادونني بيت».

وأخذاه الى أحد الخلجان الصغيرة بين الجزيرة والموقع المعروف باسم هيرتزنسيل.

وسبحا وأخذ حماماً ثم سبحا من جديد وحان الوقت لفتح سلال الطعام التي كان الفندق قد أعدها لهما. وسألها:

«هذا هو يوم الجمعة؟ فلت أنك حرة حتى ذلك الوقت».

«أتوقع أن أقابل صديقاً قديماً».

«رجل؟»

«نعم».

«اعتبري لي عضواً. ولكن، هل أنت مرتبطة بشخص آخر؟»

REMA

ملاذا تسأل؟»

«لأنني في الدقيقة التي عرفت فيها أن تريتي هنا المكان بدا عليك شيء من الضرر».

«لك شديد الملاحظة».

وحولت مجرى الحديث قائلة:

«أعتقد أنك شديد القسوة هائل الفرح التي تعاني منها. إنها حالة بسيطة للغاية. الرجال ينظرون الى سيقان النباتات، ولكن النباتات لا ينظرون الى سيقان الرجال. فضلاً على أنه لديك كل المقومات».

وضحك وقال:

«حقاً؟ وما هي تلك المقومات؟ بالتأكيد ليس منها المال...برغم وجودي في هذا المكان لبعض الوقت القصير».

وتناولا طعام العشاء معاً، وعرفت أنه سيتزوج وهو في العشرين من بريسيلا له في البراسة وعاشا في سعادة لمدة خمس سنوات.

ولم يكن قد مضى أسبوعان على زيارتها للطبيب الذي أكد أنها حامل تماماً برحلة الزيارة والديها، وشاءت الأقدار أن تصدمها سيارة فحطمت شارلوت الزوج هكذا ومات. ليزا متأثرة بجراحها لمدة ثلاثة أيام.

وعادت شارلوت ولد روعتها رواية الحادث.

«أبي... بيتر»

«ما كان ينبغي أن أقص عليك ذلك... وفي أي حال فقد استمتعنا استمتاعاً كاملاً بخمس سنوات بينما هناك أناس لا يستمتعون ولو بقدر يسير من حياتهم».

وعندما علن أوقفت ليتزول كل منهما للآخر ـ ظلت ليتلك ـ أحست شارلوت كأنها تذبلا منذ زمن بعيد ونهضت في الصباح التالي لتأخذ حمامها الباكر. فكان قد سبقها الى الشاطيء وأمضيا معاً يوماً ممتعاً.

ويوم الأربعاء ذهبا الى العاصمة وأخذ بين معه أوراق الرسم وأمضى قرابة الساعة يرسم منظر الواجهة البحرية. بينما أمضت شارلوت الوقت في التجوال حول المدينة تلقي نظرة على المتاجر العديدة الجديدة التي فتحت بعد رحيلها.

وخطر لها وهي تمضي بوجهها استعداداً للأمسية، بعد الغد سيكون ليلتم هنا.

وقال لها بين عندما عدت به الى البيت:

«أود أن أقضي نهار الغد أرسم صورة لك... اذا كان ذلك يناسبك».

وردت قائلة:

«لا مانع».

ودخل وهي على وشك الانتهاء من العشاء.

«سوف عليك شيء من النفيس... وهناك وصفة جديدة أراها فيك اليوم».

«حقاً؟ ربما كان ذلك من أثر الشمس. وأنا أحب أن تصبغ بشرتي».

وعلق يقول:

«ولكني أفضل في الاستمتاع للعيش في هذا المناخ، الذي لا أشعر بالحر فيه».

«أما أنا فالطقس البارد هو الذي يجعلني كسولاً. وهنا أصحو مع الفجر وأظل يقظة حتى منتصف الليل، وطالما تضاعف». وربما هذا هو السبب...»

وجاء صوت ليام هاملتون يقول:

«اسعدتنا مساءً».

ولمحت شارلوت بصرها ورأت ليام يقف الى جوار المائدة يرقبها بتعبير لا تفهم كنهه. انه التعبير الذي بدا على وجهه وهو يودعها منذ أربع سنوات. وأحست كأن العالم يتراجع من حولها، وسأل وهو يلتفت الى بين:

«السيد بالمر؟ والآنسة مانيارد؟»

ونهض الأمير يكي يقول:

«نعم».

ولكن هاملتون صاحب الفندق التفي أن تكون الخدمة بالدرجة اللائقة من العناية، ولم ترضي جزيرة مانغو توفاتكي».

«اننا نستمتع بوقتنا الى حد بعيد».

«هل تأذنان بأن أجلس معكما لحظة؟»

وبكل سرور».

كان من على وشك أن يشير الى الخادم ولكن الرجل الآخر أوقفه وأعطى أمراً

REMA

بصوت خافت.

وقال بن:

«لا أظن أنني رأيتك من قبل يا سيد هاملتون».

«لا. كنت في بلريدوس، ووصلت منذ أقل من ساعة. وقيل لي يا آنسة مانيارد أنك ترغبين أن تتحدثي إليّ».

قالت بصوت أجش:

«نعم... نعم».

وقال بن إذ لاحظ اضطرابها سوياً:

«أأنت بخير يا كلير؟»

ونظرت إلى ليام. وهي لا تستطيع أن تحول بصرها عنه، وواصلت تقول:

«اسمي ليس كلير يا بن. اسمي شارلوت، شارلوت مارتن، وأنجة لأنني خدمتك خدمة رديئة. أردت أن أنيل مكافأة للسيد هاملتون. قد كنا بك من قبل، ولكن المكافأة زادت إلى».

وتوجهت الكلام إلى ليام تقول:

«قالوا انك سوف تنقلب حتى الجمعة».

واستطعت العودة قبل ما توقعت. كيف حالك؟»

«أنا بخير... وكيف حالك أنت؟»

«بخير تام. وكيف حال الأسرة؟ هل هم جميعاً بخير؟»

«نعم... شكراً».

وتوجه ليام بالحديث إلى بن:

«كانت الآنسة مارتن وأسرتها تعيش هنا في يوم من الأيام، وربما عدلتك ذلك».

كان بن لا يزال يعاني من اختلاط الأمر، وقال:

«عرفت أنها كانت هنا من قبل».

وأحضر الخادم المشروبات التي أمر بها ليام له ولضيفه ورفع ليام كأسه يقول:

على صحتكما».

وتنهد بن بارتياح.. أما شارلوت فلم تقل شيئاً وتعجبت كيف أن يدها لم تكن ترتعش وهي ترفع الكأس بينما كان جسمها كله يرتعش من الداخل.

وسأل ليام بالرغم:

«هل جرّبت أيّاً من رياضات الصيد يا سيد بالمر؟ أم أنك تفضل إجازة فيها شيء من الاسترخاء؟»

«لا. أقصد نعم. ولكن أعتقد أن لديكما الكثير لتتحدثا عنه. فاعذراني».

ونظر ليام الى ساعته، وقال:

«لا. أنا من يجب أن ينصرف. قطعت عليكما الجلسة، وهناك مسائل كثيرة تحتاج الى عنايتي بصفة عاجلة. سيكون يوسعي أنا والآنسة مارتن أن نتحدث فيما بعد، أصعدت مساء يا سيد بالمر؟»

ونهض ومدّ يده مصافحاً. وانحنى شارلوت، ومدت يدها، فقد أحست أنها بحاجة الى أن تمس يده لتقنع نفسها أنه هو الذي كان هناك حقاً. كانت تبغضه لا تزال قويه. لم يتغير فيه شيء على الاطلاق، كان شكله كما عرفته طويل القامة ذا بشرة بحاسية، تُرى لجهود وبالنسبة ما أتوى الرجال جاذبية على الأرض.

وقال بن بعد أن تركهما ليام حدة لحظات واحداً.. وحاولت شارلوت أن تجبر نفسها على أن تدرس بدقة الفعل لديه في الدقائق القليلة الماضية وسنت بعدها كما تقول:

«لسنة أن كذبت عليك يا بن... التمست الآن أنني كنت على درجة كبيرة من الغباء عندما استخدمت اسماً مستعاراً».

وعلق وقال:

«لا يهم... لا تشغل بالك يا... يا شارلوت».

وابتسم وقال:

«سيمضي بعض الوقت قبل أن أعود على تذكر باسمك... شارلوت».

«أنا مندهشة أنك ما زلت تتحدث إليّ».

«أرى لا تقول ذلك... فأنا واثق أنه كان لديك من الأسباب ما جعلك تفعلين ذلك.

REMA

وأعرف أن الموقف يجبرني الى حد ما، فحدسيا ظهر هاملتون بنا عليك الاضطراب، ولكنه كان يتصرف ببرود تام.

«نعم، كان يقول: ليس كذلك! شديد البرودة».

وتمتمت:

«آسفة مارتن، وأنا يمكن أن تحدث فيا بعد».

وقال بن:

«لا أود أن أكون متطفلاً، ولكن لدي إحساس بأنه من الجيد أن تتكلمي... أعتقد أنك تحبين ذلك الرجل».

وسألته مذعورة:

«هل بدا عليّ ذلك؟»

«لا... ولكن بدا أنك أخذت بالمفاجأة لبعض الوقت».

«هل ذهب الى مكان نحس فيه بأننا أكثر حرية؟ أحسّ أن الضوضاء زائدة في هذا المكان الليلة».

«بالتأكيد... ما رأيك في الشرفة الخارجية؟»

وجلسا على كرسي هزاز عند طرف الشرفة الخارجية، وكان لا يزال يوسعها أن يسمعا ولكن بدرجة خافتة وقال بن:

«من حسن الحظ أن هاملتون عاد في وقت أبكر مما يتوقع، ولا بد أنك أحسست بالصدمة عندما تم تبديد هذا».

«نعم، كان ذلك إحساسي».

«من حسن حظك».

«قد يحدث الكثير في يومين... فلو لم يعد يوم الجمعة، ربما كنت قد وقعت في حبه».

«أود بذا بن في خمسة أيام...»

«أعرف... ولكني أعني بالوحدة... وأنت جميلة. وهذا المكان ملهب فيه العواطف. وفي أي حال أوضحت منذ البداية أنك متعلقة بشكل ما. فلو حدث ذلك لما كانت غلطتك. أعتقد أن كثيرين من الرجال قد يقعون في حبك يا شارلوت

لو أنك شجعتهم على ذلك. ذلك شخصية محبب. وليس لهذا علاقة بظهرك. فالعنصر الهام للرجال هو شخصيتك. وإذا كنت قد أحببت هاملتون وهو لا يبادلك الشعور نفسه فلا بد أن في عقله علة».

ولما لم أجب واصل يقول:

«وربما هو مهتم بك بالفعل، ولكنه مرتبط بحل هذه المشكلة».

«أجل، لا، لا شيء من هذا... ليس هو مرتبطاً بأحد».

ووجدت نفسها للمرة الثانية في أسبوع واحد تحكي ما حكته لأليدا بعد أن تلك سنوات.

وقال بن:

«مهيت، وبعد أن قلته الآن ألا تزالين تحسين بالشعور نفسه؟ ألم يتغير من صورته التي في ذاكرتك؟»

«إنه هو هو تماماً... ولكنه لم يبق معنا سوى دقائق قليلة، وربما يكون قد تغير وربما عندما أتكلم معه...»

وتوقفت ثم واصلت تقول:

«ولكنه لم يكن شديد الميل للكلام معي... أنس كذلك».

«كلا، ولكن للحق فإنك أنت أيضاً لم تظهري حماساً كبيراً. ولم توحي له أنك كنت معي فقط لبعض الوقت حتى يعود. لو كنت في مكانه ووجدت فتاتي التي لم أرها لأربع سنوات تتناول عشاء مع شخص آخر... لتسربت إلي الشكوك».

ونهض يقول:

«وزيادة على ذلك، لا أعتقد أننا ينبغي أن نبقى هنا لفترة أطول... فقد نومي الآخرين بأنهم هاملتون بالطباع غير طريقي، وربما هو يتجول الغرفة الآن ليجدك وحدك. هيا بنا الى الداخل. ولنوزع بعضنا بعضاً على مرأى من الآخرين وبعدها أذهب الى غرفتي لأكتب بعض الرسائل... ويسعدك أن تقبلي في غرفة الانتظار قليلاً. ولا أعتقد أنك ستبقين وحدك لفترة طويلة».

وسألته شارلوت:

REMA

«هل أنت واثق من ذلك؟»

«أنا واثق»

ولكنه كان مخطئاً.. اذ جلست شارلوت وحدها قرابة ساعة في قاعة الانتظار تصلي كي يظهر ليام ثانية ولكنه لم يفعل. وصعدت الدرج بفتور. وهي تعرف أنها لن تجد سبيلها الى النوم وأنها في صبيحة اليوم التالي سوف تصحو منهكة وعلى غير استعداد لمقابلة أكثر شخاً معه.

وفكرت: كان جنوناً أن أفكر في العودة. لماذا لا أستطيع أن أنسى ليام وأحب شخصاً آخر مثل بن ؟

وعندما دخلت غرفتها وأشعلت الضوء، وجدت مظروفاً في غرفتها. هل هي رسالة من بن؟ وقطعت وادها وهللت، واسرعت في كرسيها قبل أن تفتح الرسالة لتقرأ.

«أتسمحين بأن آخذ الافطار معاً في الثامنة صباح الغد في كوخ التوأمين»

وكانت الرسالة موقعة بالحرف الأول ـ ط.ه

وبذلت شارلوت جهداً كبيراً لتتأخر عمداً بفتح دقائق عن موعد الافطار مع ليام.. كانت تمشي على مهل في طريقها الى كوخ التوأمين. مع انها ظلت تنتظر ذلك منذ الشروق بفارغ الصبر ثم بذلت لتأخر أكثر من مرة لتبدو كأنها ما فكرت بعد القفار واقتربت باب الكوخ الخشبي على الثور عندما تذكرته وأشار ليام اليها بالدخول وطلبها تجلس تحت نظراته. لدهشة من غرفة الجلوس الى ثمر صغير تتلك الأشجار الكروم بطل براوية مائلة على الشاطئ الصغير.

واختفى في الداخل لحظة بعد أن أجلسها حول منضدة زجاجية مستديرة، وعاد ومعه إناءان بهما شرائح الكريب فروب وإناء اخر كبير مل، بالقهوة وعلى الطرف المقابل من المنضدة، مثول.

«إذن رجعت يا شارلوت... هل وراء الزيارة سبب خاص؟»

وجست ملامحها في الناكهة الطازجة بقلقة.

«جئت لأقضي العطلة وأستطلع حال المكان... كدت ألا أعرفه بعدما أدخل عليه من تغييرات، لكنك كما قالت ليبرتيت: تمشي كثيراً وتتعلى ذلك للعمل ولا أجد فرصة للدعة على أصبحت جداً من طول الليل.»

«أنتي الى حدما... وأجد لذة عندما أنسى من لا شيء... وأنت تعيشين في لندن على ما أعتقد؟ هل تحبين الحياة هناك؟»

REMA

«هناك الأحمال الثقيلة والأحلام من الناس وأفضل للتاجر والمعارض، وحفلات الموسيقى».

«ولكن، ما عيبك يا فضيلة».

«مديرة أعمال لرئيس إحدى الشركات العالمية للاستثمار».

«صرت في غاية الأناقة وتبدين وكأنك عارضة أزياء».

«أشكرك... لعلي صرت أفضل حالاً مما كنت عندما رحلت من هنا وبدا قادرة على التعامل بذكاء. كان شعري كصوف قرن بري وكانت حياتي عبارة عن من الخطيئة».

«كم من الوقت تقيمين هنا».

«خمسة أيام أخرى».

«هل تواصلين إجازتك في مكان آخر».

«كلا.. سأعود الى لندن».

وقال وهو يقدم إليها سلة الخبز

«رحلة طويلة ومكلفة لأسبوعين فقط. لابد أنك تقاسين رأياً مهماً».

وقالت في شيء من اللامبالاة:

«طبعاً... أتذكرك دائماً لا أنظر الآن... فقط قهوة بدون حليب من فضلك».

ونظرت الى شجرة الكرمة التي تلقي ظلالها المرتعشة على الفناء وقالت:

«لم أتوقع بعد على جدة المكان... هذه الأرض... كانت بريئة في يوم من الأيام».

وتابعت عيناها عليه، وقالت

«يبدو أنك متوتر بعض الشيء يا ليام. هل تخفيت عن شبابك الرح وأصبحت تفضل دوزن العمل على الحب؟ أتذكر بالرغم تصريحي للطفل وأنا في التاسعة عشرة من عمري».

«نعم أذكر ولكن بدون رغبة».

واصلت قهوتها، وواصلت تقول:

«كثيراً ما فكرت فيما كان سيحدث لو أني استجبت لا خواتك في تلك الليلة».

«الخوالي!».

«نعم... إنك لم تنس بالتأكيد... لماذا كنت تفعل لو أنني قبلت عرضك وذهبت معك الى غرفتك».

وقال في لهجة مقتضبة

«لا أعرف. لماذا رحبت يا شارلوت».

«قلت لك... لأقضي الاجازة... ولأجد صديقي بأصدقائي القدامى... ولكن أعتقد ليس مسروراً لرؤيتي».

وهزّت رأسها.

«أبداً... مسرور بالطبع... ولكنك تغيرت كثيراً، وليس من السهل أن تلتقط الخيوط بعد الغيبة الطويلة. هل تخرجين في إجازتك باسم مستعار دائماً».

«أردت أن أجعلها مغايرة للذي».

«عدا أنه الذي فاجأتك... يا رجل أنا آسف لقد سببت لك أي مشكلة. في الليلة الماضية».

«هل الاطلاق... ولماذا تظن ذلك».

«أحسست بشيء من الخشونة في سلوك. يا رجل».

«لقد تخيلت شيئاً لا وجود له... فليس هناك شيء بيننا ولم أعرف به إلا منذ بضعة أيام ولمعلوماتك، فإن بن بائر لم يشك قط من الأزمة التي يعيشها بسبب قلة زبونه ثم أني لا أبحث عن إجارة عرضية».

ونظر الى يدها اليسرى، وقال:

«أرى أنك لم تتزوجي أو تخطبي بعد... أم أن هذه وجود الخاتم مسألة مفصودة».

«كلا... فأنا ما زلت حرة».

«ربما لا تريدين الزواج... كي تفعل ذلك كثيرات الآن».

«لا يشغي أن تصدق كل ما يقال عن المجتمع المتحلل. ربما ينطبق ذلك على قلة من الناس ولكن ليس على الغالبية».

كانت المحادثة يفقدها الحماس وبعد صمت دام لفترة قالت شارلوت محدقاً... لابد أن لديك أعمالاً تستحق اهتمامك أكثر من الحديث عن الماضي... ومن الأفضل أن أتركك لتهتم بها».

REMA

ونهضا ولكن شيئاً لمع في عينيه الرماديتين الفاتنتين وتوقعت أن يقول: طلبت العمل الى الشيطان سأمضي اليوم معك». لكنه بدلاً من ذلك قال:

«يجب أن نتحدث ثانية في وقت آخر».

وعرفت شارلوت الى المنى الرئيسي تفكر مصممة: «لذا أعيش على الأمل حتى الآن» انه لم يعبني وان يعبني».

واعترض البواب طريقها، وسلمها رسالة مغلقة قائلاً:

«ترك السيد بالمر هذه الرسالة لك يا سيدتي».

«أشكرك».

وفتحت الرسالة، وقرأت عليها بخط بن الواضح الجميل.

«عزيزتي ـ شارلوت الشدق وأنا أتلهم وعيني في أن أودعك شخصياً، وعندما تتسلك هذه الرسالة التي أن يكون قد تم إصلاح كل ما بيننا وبين عائلتين، عظاً سعيداً يا شارلوت وشكراً على الذكريات الجميلة الغالية التي سنعيش بين».

كان بن غادر الفندق بالفعل وبدلاً حاولت أن تتصل به.

وصعدت الدرج منهكة كأنها كانت تحتمل بومها مع أن الوقت لا يزال في الصباح.. ووقفت أمام باب الغرفة تحت من التشاح ودموع اليأس على وجنتيها وفاجأتها نيولیت تقول:

«صباح الخير يا سيدتي، هل عدت نوماً هادئاً؟»

«أفضل يا نيولیت.. معذرة فاني على عجل».

وفتحت الباب فتحتني عن الأنظار أمنة ألا تكون نيولیت قد لاحظت بكاءها.

ودق جرس الليفون في غرفة شارلوت بعد أن دخلتها بشعر دقائق. وكانت قد خلعت سترتها السفاء وألقت بها على أرض الغرفة وهفت وجهها في الفراش وظل الجرس يدق لمدة دقيقة، فرفعت وجهها الذي أنهكه البكاء وقصت سماعة التلفون، وقالت:

«نعم».

«شارلوت؟ هل أنت بخير؟»

كان للصوت الباب. ولما لم تجبه على الفور واصل قائلاً:

«مرافك نيولیت تنتظرين الى غرفتك باكية.. طمأنيني».

«كان في عيني رمش.. وخرج الأمر».

«آمن.. أسلف الازعاج».

ورفعت شارلوت السماعة واستسلمت لموجة أخرى من الأسى والقنوط. وتأخرت بعد ذلك بدقائق عندما سمعت مفتاحاً يدور على عجل في قفل باب جناحها من الخارج، وحدقت لثانية المرأة وتوقعت أن تظهر نيولیت على باب غرفة النوم ولكنه كان الباب وكان أول ما قاله:

«انك تبكين».

كان الغضب قد بلغ شارلوت حدته حتى أنها لم تفكر ستر جسمها وخلع كل عن ملابسها الداخلية، لا تقل خشية عن رداء البحر، واقتربت تقول:

«كيف تجرؤ على الدخول؟ فقط لأخذ..»

وتلعثمت ولم تستطع أن تكمل.. فقد احتواها بين ذراعيه وعانقها.. كأنما ارتمى عاد أدراجه أربع سنوات الى تلك الليلة التي لا تمحى قبل نفيها عن الجزيرة. لكن الأمر مختلفاً تماماً. لم تعد المرأة طفلة كما كان ينظر اليها بين الحين الزمن مشاعرها وتحقق من أنها مشاعر دائمة.

ولم يقل أيام في هذه المرة ما قاله في المرة السابقة، «هيا نذهب الى الغرفة» لكنه قال:

«يا الهي.. لم عرفت كيف اشتقت اليك».

وظل الصمت طويلاً تعبر عن الشوق العاطفي الذي سبب لها الألم منذ زمن بعيد، واستجابت هذه المرة بكل جوارحها، ثم قال لها:

«أنت أيتها الجميلة الصغيرة؛ لقد كنت على حق، فهل كنت تعودين الى انكلترا بدون أن تجعليني أتأكد من أنك لم تتغيري؟»

«وكيف كان لي أن أعرف أنك أنت تغيرت؟»

«أنا؟ لقد أحببتك دائماً.. حتى في تلك الليلة التي لجأت فيها الى كل الطرق لأجعلك تكرهينني».

REMA

«أخافُ كنت تعني «المرأة»

«من اليوم الذي حضرت تجلسني على الركبة... قلت أن أكون قاسي في العشرين لأصبح فتاة»

«ولماذا تركتني أتعبي؟»

«ما عزيزتي... والدتك كانت تحب بي ولكنها كانت تعرف ماضي فخشيت لا تواتي على زواجك»

وواصل يقول:

«لا أستطيع أن أصدقك... كنت في الليلة الماضية وفي هذا الصباح تظنين أن عرود الدرجة التي أحسست أنك ربحت خصيصاً لتثأري مني»

«لم يكن بروفاً يا لبلم، كان توتراً فلم يكن باستطاعتي أن أعرف ما يدور في رأسك»

«معنى الآن؟»

«الآن... نعم... حتى تبوح لي بكل شيء»

وهز بحذائها ولكنه تصلب وابتعد عنها فجأة، وقال:

«لا زال بيننا حاجز يا شارلوت... ليس من حقي أن أطلب إليك أن تذكري زوجي»

«ولم لا؟»

«أريدك نفسك أولاً، وسأنتظرك في غرفة الجلوس»

وقبلت رأسها ونهضت فتطلعت هو لا وأخذت يد هنالك... فقال

«أتذكرين القصة التي سمعتها من المرأة العجوز التي كانت تعمل لدى أسرة سوليفان؟ لقد أرادت تلك المرأة أن تشوه سوليفان كان وحشاً نظراً لأن زوجته بقيت شاكة وأصيب في النهاية بنوع من الاضطراب والتهاب»

«أليس هذا صحيحاً؟»

وهز رأسه قائلاً:

«فعلاً حقاً لم أطلق الرصاص على نفسه ولكن باقي القصة كان عكس ما سمعت تماماً فإنه لم يكن رجلاً هرماً... وكان فارق السن بين الزوجين أقل مما هو

بينك وبيني، ولم تجبر روزالين على الزواج منه والدتي الفرنسية ليحقق لها أحدى رغباتها لبيني بيتاً هنا وأما عن القول بأنها تزوجته لتنقذ أسرتها من الأفلاس فهو هراء. فلم يكن أهلها ملاك أرض جار عليهم الزمن، وكان أبوها موظفاً عادياً في مكتب الخارجية»

وعلقت شارلوت:

«لقد تحدثت كما لو كنت تكرهينه»

«كنت أمقت مجالسته بأكثر من الكراهية... ولم أشعر نحوها بحب وقد تصدرين بهذا، فليس من الطبيعي أن يكره الابن أمه»

وواصل يقول:

«أحببت سوليفان لأنه خداعني كأب ولكنني غير متأكد مما إذا كان حقاً أبي... وسيظل هذا سراً»

«حسن... لماذا؟ ماذا تعني؟»

«لقد قبل سوليفان روزالين لأنها بعد أن جعلت حياته جحيماً ذهبت معه الى حد لا يمكن أن يحتمل... لم يفقد أعصابه بالمعنى العادي، ولكنني أعتقد أنه أصيب بحالة فقدان للوعي. فقد قالت له في تلك الليلة شيئاً لا يحتمل أفقده كل سيطرة على نفسه، قالت انني لست ابنه. فاستجاب الغريزة عياد فقعته الى أن يقتلها حتى لا تكرر ما قالته»

«ولكن، هل سمعت ذلك بنفسك؟»

«نعم»

«أوه! لبلم... يا حبيبي»

وانتزعت منه وتركت ذراعيها يلتفان حوله.

وأزاحها في رقة وهو يقول:

«لم أقل هذا لأكسب عطفك يا شارلوت... ولكن لأجعلك تعرفين مدى المخاطرة التي ما قبلت الزواج مني»

«أية مخاطرة؟ عن أي شيء تتحدث؟»

«لو كان سوليفان أبي فانني ابن قاتل... وإذا لم يكن أبي فانني مجهم في

REMA

نسي... والشيء الوحيد الثابت أن أمي كانت امرأة سهلة الخلق.

«لا أتصوّر يا ليلى أن يتحدث رجل في مثل ذكائك بالطريقة التي تتحدث بها السيدات الشابات عن المؤهلات... من ذلك الذي يعير الوراثة ذرة من الاهتمام؟ إذا لم تحب أطفالاً فذلك لن تعترض ولا شك على تبني أحد الأطفال... لماذا تشغل نفسك بأصل أوديب؟ الانسان ليس نتاجاً للخصائص الوراثية فقط... وإلا لكان أبناء العباقرة، ولكان الأغبياء ينجبون دائماً أغبياء... بل العكس قد يحدث، كما يمكن أن ينحدر طفل من أسرة عريقة كالحة الى خائن متشرد. فالبيئة تصنع شيئاً»

وما هو؟

«حتى لو كانت الوراثة لا تؤرقك... فان سجل حياتي لا يستحق الاعجاب»

وقالت في جدية

«رغم ملابسات طفولتك فانك تستمتع بالاستقرار النفسي... عمري الآن اثنتان وعشرون سنة يا ليلى، وأعرف أن أفكر وأن أقرر من هو الرجل الذي أريد أن أتزوجه.

نعم... مررت بخبرات لا بأس بها ولابد أن أعترف بأنني عندما سمعت بذهابك للحياة في لندن كنت أشهر أصابعي يقظاً في الليل أنظر الى صورتك التي أحتفظ بها وأفكر كم من الرجال يحاولون خوايتك؟»

«ولكن إذا كنت قد استطعت مقاومتك وأنت الشخص الذي أحب... هل كان من السهل أن أستسلم لغيرك؟»

«كنت أخشى أن تتحري السرعة لا تهتمين فيها يا لعلوته

«لم أكن أعرف أن لديك صورة فوتوغرافية لي»

«انها الصورة التي التقطها ريكاردو توريتل... والتي جعلتك تدين أكثر مما كنت اذ ذاك»

«كنت دائماً تبدو قطاً معي... وذات مرة كنت عام توماً خليفاً على الفاطمي» فأيقظتك وكنت حذاء

«كنت أعلم بك كامرأة ناضجة ويأتني أتذوق الحب معك... والآن كبرت

بالفعل... وربيحها ذكاء.

وأحواها بذراعيه وأغلقت شارلوت عينيها... وهي تفكر في سعادة أنه سيكون عليها أن ترسل عدداً من البرقيات... وتسيت بعد ذلك كل الاعتبارات العملية واستسلمت للعوارها بليغ من السعادة... السعادة لأنها ستصبح زوجة لتام أخيراً.

www.liilas.com
REMA